منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة

د/ محمد بن قاسم ناصر بوحجام

جامعة الحاج لخضر/ باتنة

تمهيد

إذا كانت التّربيّة تعني بناء الإنسان السّويّ القادر على القيام بشؤون الحياة، وتحقيق الغاية من خلقه، وإيجاده على الأرض، وهي عمارتها بما يفيد، واستثمارها بما ينفع ﴿...هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الاَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (سورة هود/ 61)، لهذا يجب أن يسير في هذا الوجود وفق منهج الله، الذي يتضمّنه دينه وشرعه.

أنّ ما يضمن هذا المنهج هو العقيدة، التي يجب أن تكون المصدر لكلّ حركات الإنسان، والموجهّة لسلوكه، والرّاصدة لأفعاله ونشاطه...والتّربيّة تقوم بدور الإعداد والتّكوين والتّنشئة؛ طبقًا لما نزل به القرآن العزيز، وبيّنه رسوله الكريم، إذا كان الهدف هو إعداد الإنسان الصّالح.

يقول الشّيخ إبراهيم بيّوض :" إنّ العالم كلّه يتخبّط في مشاكله الاجتماعيّة والاقتصاديّة وعلاقاته التّعامليّة: أفرادًا وجماعات، وأكبر عويصة تؤرّقه، وأخطر مشكلة تحيّره: كيف يصل إلى السّعادة في الدّنيا؟ أمّا غير المسلمين فهم في حيرتهم يعمهون؛

إذ كلّ واحد يتصوّر السّعادة في شيء من الأشياء، فكان الحنافس أو الهيبيز [1] الذين تدفعهم شياطينهم إلى إرسال شعورهم، وترك الأوساخ والعفونات على أجسامهم، ينامون في الأرصفة والطّرقات، يركب بعضهم بعضًا كالدّيدان والحيّات. والذي يدفعهم إلى كلّ ذلك شيء واحد هو خلوّ القلب من عقيدة صحيحة. أمّا المسلمون فيسعدون بإيمانهم الذي يغمر قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ الذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ (سورة الرّعد/ 28) [2]

يشير الشّيخ بيّوض إلى واقع مرير، يعيشه الإنسان الخالي قلبه من العقيدة، فيبقى في الحيرة والتّيه والشّقاء قامعًا وقابعا. واقع عسير، يكشف عن حال يحياها ناس فقدوا الإيمان، فعاشوا اليأس والقنوط، زبذلك يتحرّكون بفوضى وهمجيّة في حياة، صبغتها حيوانيّة متوحّشة، وشهوانيّة متردّيّة، مهدرة للكرامة والعزّة...

في مقابل هؤلاء المستهترين بكرامتهم، والمذلّين أنفسهم، يأتي الأعزّاء الكرماء، الذين يعيشون في طمأنينة وراحة بال، سعداء بما يقومون به، وما يبدونه من سلوك؛ وذاك بفضل ما بغمر قلوبهم من إيمان، وما يسكن صدورهم من عقيدة. يقول الشّيخ بيّوض: "...ذلك لنعلم علم اليقين أنّ السّعادة إنّما هي في القلب، والشّقاء إنّما هو في القلب، ليس إلاّ. فإذا حلّت السّكينة في القلب، فكان يذكر الله، فتلك هي السّعادة

---

1 – مجموعة من الشّباب ظهروا في أوّل الأمر في سواحل كاليفورنيا بالولايات المتّحدّة الأمريكيّة، تدعو إلى حريّة العادات والتّقاليد، بما في ذلك الجنس، والعودة إلى الحياة البدائيّة، وعبّروا عن رفضهم لقيم وتقاليد المجتمع بلباس خاصّ وشعور طويلة.

2 – الإمام الشّيح بيّوض، في رحاب القرآن، (تفسير سورة الفتح)، تحرير عيسى بن محمد الشّيخ بالحاج، نشر جمعيّة التّراث، القرارة، غرداية، الجزائر، 1431هـ/ 2010م، ص: 331، 332. كلّ أجزاء في رحاب القرآن من نشر جمعيّة التّراث.

المثلى، حتّى ولو كان في وسط نار الجحيم كالنّار التي ألقي فيها إبراهيم عليه السلام، أو كان في غياهب سجن مظلم، كالسّجن الذي سجن فيه يوسف عليه السلام، أو بطن حوت ضخم كالحوت الذي ابتلع يونس عليه السلام،، أمّا إذا لم تحلّ السّكينة في القلب، فإنّ صاحبه يعيش في شقاء وضجر، ولو كان في أفخم قصور الدّنيا، أو كان في أرحب بلاد، لا يحدّها سقف ولا جدار، حتّى إنّه يتمنّى أن لو استطاع لأخرج قلبه، ونفض ما فيه من الهمّ، كما ينفض الغبار عن الثّوب، ولكنّنا نقول لهذا: اسأل ربّك أن ينفض ما في قلبك من همّ، بأن ينزل السّكينة، فيطمئنّ ويزداد إيمانًا" [1]

في تعليق الشّيخ بيّوض على قوله تعالى ﴿هُوَ الذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المومِنينَ ليزدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إيمانِهِمْ... ﴾ (سورة الفتح/ 4) بيان لقيمة التّفويض إلى الله والاعتراف بالعجز عن الإدراك، وفي هذا تعظيم الخالق، وكلّ ذلك ينزل السّكينة في القلوب، فيتقوّى الإيمان بالله فيها، فتزداد تذلّلا له وخضوعًا... [2]

كلّ السّرّ والعبرة وبيت القصيد في ما جاء في ختام النّصّ (ويزداد إيمانًا)، راحة الإنسان في سعادته، وسعادته منوطة بما يجب أن بتوفّر من أسباب ووسائل لذلك، هذه الوسيلة هو الإيمان الذي يغمر القلب، وهذا الإيمان توفّره العقيدة؛ لذا وجب الاعتناء بغرس العقيدة في القلب، ليكون الاطمئنان، وبذكر الله تطمئنّ القلوب، فلا غرو أن يكون القرآن كتاب عقيدة، فيتقيّد الشّيخ بيّوض في منهجه بهذا، فيفسّر القرآن الكريم وينظر فيه بمجهر العقيدة، ويفتح مغاليقه أو خزائنه بمفتاح العقيدة...

---

1 – في رحاب القرآن، تفسير سورة الفتح، ص: 234.

2 – عن أمثلة عن تفويض الأمر إلى الله، وردّ العلم الحقيقي إلى الله، بما يبعث السّكينة والطّمأنينة في القلب، فتجتاز كلّ محنة، وكلّ عقبة وكلّ امتحان وكلّ فتنة...ينظر المصدر السّابق، ص: 228 وما بعدها.

إنّ الشّيخ بيّوض يؤكّد على ضرورة العقيدة لتستقيم الحياة، بل لتكون الحياة الحقيقيّة، التي تهيّئها التّربيّة الحسنة، وهو لا يرى التّربيّة إلاّ عقيدة، بمعنى أدقّ: إنّ ما يجب أن تقوم به التّربيّة هو غرس العقيدة في القلب، واستثمارها في تحسين السّلوك، وتعديل المسير...يقول الشّيخ: "...فقد قام والد ينصح ولده، فأجابه الولد: لا تتدخّل في خصوصياتي: ديني، عقيدتي، عملي. ويلك يا هذا، إذا لم يتدخّل أبوك في عقيدتك حتّى يصحّحها، وفي قولك وعملك حتّى بصلحهما، وفي سلوكك حتّى يسدّده، فما معنى التّربيّة؟ " [1]

هذا هو فهم الشّيخ بيّوض للتّربيّة، فَهِمَهَا: أنّها تثبيت للإيمان في القلب، وترسيخ للعقيدة فيه؛ لأنّهما إذا تمكنّا في نفس شخص جاء سلوكه سويًّا، وكان تحرّكه في خطّ مستقيم، وهو صراط الله الذي شرع لعباده. وهذه هي الغاية من التّربيّة. يقول الأستاذ حمّو الشّيهاني: " وقد اهتدى الشّيخ بيّوض لتأسيس جهوده الإصلاحيّة على الدّعوة إلى تجديد الإيمان، وتركيزه في النّفوس؛ تأسّيًا بما ينطلق به الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، إذ يقول: (كان لزامًا علينا أن نعود، فنبدأ بما بدأ به الرّسل، إلى الدّعوة إلى الإيمان وتقريره في القلوب من جديد) " [2]

ذكر الشّيخ بيّوض هذا التّنبيه، في أثناء حديثه عن محاربة البدع والخرافات التي يتمسّك بها بعض النّاس، ويدّعون أنّ ذلك دين، أو يجهلون حقيقة الدّين، فيتخبّطون

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي غافر وفصّلت)، 1428هـ/ 2007م، ص: 489.

2 – حمّو بن عيسى الشّيهاني، الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، منهجه وأبعاده (أطروحة الدّكتوراه في العلوم الإسلاميّة) (مخ)، كليّة العلوم الإسلاميّة، جامعة الجزائر، السّنة الجامعيّة: 1430 – 1431هـ/ 2009 – 2010م، ص: 62. النّصّ المقتبس هو من كتاب في رحاب القرآن (تفسير سورة لقمان)، ص: 177.

في سلوكهم، ويخلطون ويخطئون في أعمالهم...وفي كلتا الحالتين يجب التّنبيه والتّصحيح، والبداية تكون بتصحيح العقيدة، وتجديد الإيمان، إنّ هذا السّبيل هو الكفيل بتربيّة النّفوس على الالتزام يشرع الله، والاحتكام إلى قانونه، والصّدور عمّا يدعو إليه الخالق البارئ. يقول الشّيخ بيّوض: يَتِمُّ هذا" بدءًا من رسوخ أصول العقيدة في أعماق القلب، إلى أقلّ عمل يصدر من جارحة من الجوارح" [1] فلا ضمان لاستقامة عمل الجوارح إلاّ توجيهُ العقيدة الصّحيحة لها، ثمّ مراقبتها فيما يصدر عنها.

لقد أولى الشّيخ بيّوض العقيدة أهميّة كبيرة في عمله الإصلاحي والتّربوي والتّوجيهي والبنائي، بخاصّة في تفسيره القرآن الكريم, الذي كان يربّي به من يخاطب ومن يوجّه إليه تفسيرَه، يقول: " إنّ غرضي من تفسير القرآن هو تربيّة النّاس بالقرآن، وتثقيفهم..."

كانت العقيدة هي الأساس الذي بنى عليه الشّيخ بيّوض تربيته بالتّفسير، ينطلق منها ليصل إليها، يؤسّس منها وعليها ما ينطق به، وما يوضّحه، وما يشرحه، وما يقيم عليه بنيانه التّربوي والتّوجيهي والتّرشيدي والإصلاحي...وعمله الشّمولي الذي يمسّ كلّ مناحي الحياة. بمعنى أوضح وأصرح، كان يجعل العقيدة القاعدة الصّلبة التي يرتكز عليها في عمله الدّعوي والإصلاحي، وهذه نقطة مهمّة في منهجه في عرض العقيدة وتناولها؛ ممّا نكشف عنه في الصّفحات الآتيّة.

---

1 - في رحاب القرآن(تفسير سورتي الفرقان والشّعراء)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1420هـ/ 1999م، ص: 96.

يقول الأستاذ صالح بن محمد حمدي: " هذه هي مكانة العقيدة من تفسير الشّيخ بيّوض – رحمه الله – هي حاضرة في جلّ دروس تفسيره، التي كان يلقيها لكافّة النّاس في بيت الله تعالى. فمهما كان موضوع الآيات التي يغوص في تحليلها: تشريعًا أو تربيّة أو تاريخًا... لا يمضي معه دون أن يحكم صلته ومرجعيّته الإيمانيّة. وإذا كان الموضوع عقيدة اعتصر منه آثاره العمليّة. فالقضيّة الإيمانيّة عند الشّيخ بيّوض هي المحور الذي منه ينطلق الإنسان المؤمن وإليه ينتهي؛ حتّى يحقّق خلافة الله له في الأرض، ويفوز بالجنّة والرّضوان في الآخرة " [1]

إنّ طريقة تعامل الشّيخ بيّوض مع القرآن ومنهجه في هذا التّعامل: تفسيرًا وتأويلاً وتحليلاً وبيانًا...يبرز ويقرّر أنّ القرآن نزل – أصلاً – ليثبّت العقيدة في القلوب، ويكشف أنّ كلّ ما يؤمر به المرء أن يأتيه، وكلّ ما يُنْهى عنه أن يتجنّبه، منطلقه العقيدة، ومنتهاه العقيدة، وما بينهما يتحرّك في خطّ مستقيم بين المنطلق والمنتهى. لهذا تظهر لنا قيمة المنهج الذي سلكه الشّيخ بيّوض في تفسيره القرآن الكريم.

يقول الشّيخ محمد الغزالي عن القرآن الكريم: " هو وحده مصدر العقائد، وموطن اليقين. وأسلوب القرآن في تقرير العقائد يمتاز بالوضوح المطلق، ويتّسم بالموافقة لبداهة العقل، واستعصائه على المتناقضات والشّبهات."[2] ويقول حمّو

---

1 – صالح بن محمد حمدي، مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام إبراهيم بن عمر بيّوض من خلال تفسيره في رحاب القرآن، ط1، دار الخلدونيّة، الجزائر، 1430هـ/ 2009م، ص: 57.

2 – الشّيخ محمد الغزالي، الدّفاع عن العقيدة والشّريعة، ص: 82. نقلاً عن حمّو الشّيهاني، الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 55.

الشّيهاني: " يعتبر تفسير القرآن بالقرآن أرضيّة صلبة لأسلوب حديث في التّفسير، يسمّى (التّفسير الموضوعي) وقد وظّفه الشّيخ بيّوض في علاجه للقضايا العقديّة، حيث يجمع الآيات في الموضوع المدروس، ويرتّبها قصد اكتمال الصّورة عنده، ليهتدي بذلك إلى استنتاجات مؤصّلة." [1]

الأهداف المنشودة

إنّ من يتأمّل منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة يستنتج مجموعة من الأهداف، ومن خلال هذا الاستنتاج أو بعده يمكن له أن يدرك أهميّة هذا المنهج، ويعرف دوره في الإصلاح والتّربيّة والتّكوين والإعداد. من هذه الأهداف:

1 – البيان والتّوضيح ورفع اللّبس

هذا المنهج كان يهدف إلى توضيح بعض الأمور الغامضة، وبيان بعض المسائل الخفيّة، ودفع بعض الشّبه، التي قد تؤثّر في حقيقة المعتقد. لذا فهو يسعى لتصفيّة القلوب من الاعتقاد الخاطئ؛ الذي أفرزه سوء الفهم، أو العجز عن الإدراك، أو الخطأ في النّظر.

تعرّض الشّيخ بيّوض للفهم الخاطئ، الذي تقدّمه لنا عقولنا القاصرة، فنبني عليها أحكامًا، قد تمسّ العقيدة. وعمد إلى التّصحيح والتّوضيح. قال الشّيخ: " لقد ذكرنا أمثلة عن هذا (عن أخطاء الأنبيّاء) في حقّ الأنبيّاء والمرسلين، وردت في القرآن الكريم، لا على سبيل الحصر، وبخاصّة فيما يتعلّق ينبيئنا ﷺ، فقد عابه الله في شأن المنافقين [1]...لكنّ الصّورة التي تُظهر لنا بوضوح حقيقة معنى خلاف الأولى بالنّسبة للنّبئ ﷺ، وندرك من خلالها أنّ ما عمله النّبئ ﷺ، كان – بحسب عقولنا — هو

1 – ينظر الآيتان: 43 و83، سورة التّوبة.

الحقّ والصّواب، وأنّه إنّما كان يقصد الخير والمصلحة العامّة لا غير، وهذا ما تبرزه لنا قصّته مع سيّدنا عبد الله بن أمّ مكتوم الأعمى رضي الله عنه، الذي عاتب الله تعالى فيه نبيئه ﷺ..." [1]

بعد أن فصّل القول في هذه القصّة، وبيّن ما يجب اعتقاده في أمثال هذه المواقف، والرّجوع إلى الوحي لفهمها، وعدم النّزول عند منتجات عقولنا، قال: " إنّ هذه الحادثة تفتح لنا بابًا واسعًا للفهم، ندرك بها حقيقة الأمر بالنّسبة لفعل النّبيء ﷺ، من المنظور الإلهي في هذه القضيّة، أو قضيّة أسرى بدر، أو قضيّة الفداء، وكان في كلّ منها يراعي المصلحة كما راعى المصلحة كذلك لما صلّى على عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين...

وبعد، فإنّه ليس في مثل هذه الأعمال التي قام بها الرّسل عليهم السّلام – وبخاصّة نبيئنا محمّدًا ﷺ – أيّ ذنب بحسب ما نراه نحن ونظنّه، ولكنّها بحسب مقامهم العالي، وما أراده الله تعالى منهم من الإسوة، هي ذنوب في حقّهم، وبهذه النّظرة يمكن لنا أن نفسّر هذه القصّة وغيرها ممّا يروى عن النّبيء ﷺ وغيره من المرسلين، والتي يريد الله تعالى من ورائها أن يوجّهنا إلى تعظيم أوليّائه، وإن كنّا لا نعلم على وجه التّحقيق من هو الوليّ عند الله..." [2]

2 – توفير الحصانة الإيمانيّة

يهدف المنهج إلى توفير الحصانة الإيمانيّة، التي تعصم من الاستهتار بالدّين، والتّهاون في الحدود، والاستخفاف بالقيم... وتهيّئ النّفوس للتّمسّك بشرع الله،

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة الفتح)، ص: 216، 217.

2 – المصدر السّابق، ص: 220، 221.

وتحكيمه في الحياة. قد يقال: إنّ هذا الهدف هو القاسم المشترك عند كلّ من يتناول عرض العقيدة، نقول هذا صحيح، وهو ما يجب أن يقام به، لكنّنا نؤكّد أنّ ما قدّمه الشّيخ بيّوض لتحقيق هذا الهدف لافت للنّظر. ميزة منهجه أنّه يبيّن بالمحسوس وبضرب الأمثلة لما يقدّمه في عرض العقيدة، ويبيّن ويضيء ببراعة الجوانب التي ترتكز عليها حقيقة العقيدة، مع الاعتماد على التّعليل، كما فعل حين تكلّم عن دور الحصانة الإيمانيّة في تصفيّة القلب من الشّبهات التي تنال من العقيدة. فقال: إنّ الحصانة الإيمانيّة تلقيح للقلب من الأمراض التي قد تصيبه، فهو يرى أنّ النّاس الذين انحرفوا عن الصّراط المستقيم سببُه أنّه " ليس لهم حصانة في نفوسهم، ولا في عقولهم. فهم كالجسم المهلهل المستعدّ لتقبّل كلّ الأمراض، ومن أراد الله به خيرًا يحصّن قلبه بالإيمان، وعقله بالتّفكير؛ حتّى يميّز بين النّفع والضّرر، وبين الحقّ والباطل، وبين المعروف والمنكر. فلا تتعلّق الشّبهات بقلبه، وقبيح بأحد أن يكون قلبه كما قال الإمام مالك: (لا يكن قلبك كالإسفنجة تتشرّب الشّبهات، ولكن كالزّجاجة التي تدفع، ولا ينفذ منها إلاّ النّور." [1]

عن القلب الذي هو مناط زرع العقيدة، ودوره في توجيه الجوارح لتكون صالحة، وتبقى متّبعة الصّراط المستقيم، يقول الشّيخ بيّوض: "...لأنّ العلم لو بلغ إلى

1 – في رحاب القرآن(تفسير سورتي مريم وطه)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1416هـ/ 1995م، ص: 265، 266.

أعماق القلب، حيث محلّ اليقين والطّمأنينة لرسخ فيها، ولعملت الجوارح بمقتضاه" (1)

التّأكيد على نقطة الارتكاز في عمليّة تثبيت العقيدة وهو القلب، هو جزء من طبيعة منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة. يقول مثبّتًا ما قاله في النّصّ السّابق: "...إذن يريد الله تعالى أن تكون قلوبنا طاهرة، ويريد أن يقطع الفساد من جذوره، وجذورُه في القلب، وإذا اجتثّت من القلب إرادة الاستعلاء ومحبّة الفساد صلحت الجوارح، واستمرّت في الصّراط المستقيم." (2)

3 – صلاح الأعمال

يقول الأستاذ حمّو الشّيهاني: " يقصد الشّيخ بيّوض من الدّرس العقدي صلاح الأعمال وتحقيق الاستقامة، التي تعدّ ثمرة الإيمان الصّحيح، ويتجنّب المشاحّة في الألفاظ – ولو خالف مشهور مذهبه الإباضي – ما لم يؤدّ ذلك إلى محذور مخالفة النّصوص القطعيّة، والمقاصد العامّة للدّين" (3)

4 – إحداث التّكامل والانسجام في شخصيّة الفرد المسلم

إنّ الشّيخ بيّوض من خلال تعامله مع النّصوص الشّرعيّة، يعمد إلى جمع مجموعة كثيرة من النّصوص في الموضوع الواحد؛ ليعرضه عرضًا صحيحًا، وبتناوله تناولاً سليمًا، وليشمل الجوانب التي يتضمّنها الموضوع. إنّ هذا نابع من خاصيّة الشّموليّة التي تميّز به

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي سبأ وفاطر)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1425هـ/ 2004م، ص: 215.

2 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي النّمل والقصص)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1421هـ/ 2000م، ص: 522. ينظر الفكر العقدي: ص: 273.

3 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 127.

منهجه في معالجة الموضوع بعامّة، والعقيدة بخاصّة. ويبدو هذا جليًّا في تفسيره القرآن الكريم، الذي تحوّل – في نظري – إلى كتاب عقيدة، حسب معالجة الشّيخ بيّوض للتّفسير. في هذا التّناول تبدو الشّموليّة في درس العقيدة واضحة في منهج الشّيخ بيّوض في تفسيره. وقد انتهى إلى هذه النّتيجة الأستاذ صالح حمدي: " إنّ هذه النّظرة الموضوعيّة المتكاملة للقرآن من قبل الشّيخ — وإن تعدّدت تعابيره عنها — نرى أنّها تهدف إلى إحداث مثل هذا التّكامل والانسجام في شخصيّة الفرد المسلم، بين ما يحمل في قلبه من قيم ومبادئ، وما يصدر عنه من سلوك ملتزم في واقع حياته، فلا يقع في شراك النّفاق والانفصام بين العقيدة والسّلوك.، كما أنّها تهدف إلى حسن الفهم والتّصوّر لقضايا العقيدة فهمًا منسجمًا مع روح الدّين وقواعده، وإلى الحفاظ على وحدة النّصوص من التّناقض والتّضارب في الفهم والاعتقاد" [1]

5 — حسن الفهم والتّصوّر لقضايا العقيدة

يهدف المنهج إلى تمكين المسلم من حسن فهم مسائل العقيدة، وحسن تصوّر قضاياها؛ ليفقه دورها في حياته، وضرورتها لضمان الاطمئنان والرّاحة والاستقرار واليقين...

6 – **تكوين أجيال مؤمنة بربّها**، تفقه دينها، وتتقن كيفيّة العيش على هدي القرآن الكريم، وسنّة رسول الله ﷺ، وتكون مرتبطة بالأصول الصّحيحة، وصادرة عن مبادئ ثابتة..[2]

تحديد المصطلحات وتوضيح المدلولات

---

1 – صالح بن محمد حمدي، مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام بيّوض إبراهيم بن عمر، ص: 68.

2 – ينظر أساليب تحقيق الوحدة الإسلاميّة من خلال الدّرس العقدي، كتاب الفكر العقدي ص: 127.

يعتمد منهج الشّيخ بيّوض في تقديم درس العقيدة، ومعالجة موضوع العقيدة، على تحديد المصطلحات، وتبيين المفهومات، والتّدقيق في الألفاظ التي تحمل الدّلالات العقديّة، ويتحرّى في هذا المجال تحريًّا كبيرًا الصحّة والحقيقة؛ حتّى يكون البناء الذي يبني به الشّخصيّة السّويّة صحيحًا؛ بصفة العقيدة هي الحجرة الأساس في هذا البناء. يمكن عرض هذا الجانب في النّقط الآتية:

1 – يعنى الشّيخ بيّوض بشرح الألفاظ التي يتوقّف عليها الفهم الصّحيح للآية القرآنيّة – مثلا – وذكر المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم، مع سرد الآيات التي جاءت فيها وشرحها وتوضيحها.

2 – يجتهد في إعطاء الألفاظ والعبارات والتّراكيب والمصطلحات دلالات عقديّة. يعكس هذا طبيعة تفكير الشّيخ بيّوض، ويبرز شدّة فهمه وقوّة وعيه لما يربط فكره أو تفكيره، وما يشدّ وجدانه، ويصبغ شخصيّته. هذا التّعامل وهذا التّناول بهذه المنهجيّة ينقل حقيقة المعتقد للدّين أو حقيقة الدّين. ويصل بالمخاطب إلى الحقيقة التي يجب أن يعرفها المؤمن بالله حقّ الإيمان، وهي " وحدانيّة الله " أو على الأقلّ يعرف مصدر الوحدانيّة.

3 – بيان حقيقة الدّين والدّينونة، أي معرفة كيفيّة الخضوع إلى إرادة الواحد الدّيّان، والاستسلام له؛ بإتيان أوامره، والانتهاء عن نواهيه. هذه الدّينونة تدلّ الفرد على مواطن الخير، ليرتادها، وتريه مواطن الشّرّ ليبتعد عنها. إنّ الشّيخ بتحديده مفهوم الدّينونة بطريقة منهجيّه ودقيقة يضع لبنة في منهجه في عرض العقيدة، بذلك يقوم بعمليّة التّفهيم والتّوعيّة والتّصحيح... على أحسن وجه. يقول الشّيخ: " فالدّين من حيث هو دين هو ما يدينه به البشر من عقيدة، والدّينونة ما يعتقده أحد في قلبه بحرمة شيء وغلبته وقوّته،

وكونه مصدر الضّرّ والنّفع، والخير والشّرّ، فيدين له، أي يخضع له. وَ" دان " بمعنى: خضع. فأصل الدّين كلّه ينبني على هذه العقيدة، أن يرتكز في القلب أنّ هذا الشّيء له قوّة، وله غلبة، وله سلطان، يستطيع أن ينصره إن شاء أو بنفعه، فهو يدين له، يخضع ويتودّد إليه بأيّة كيفيّة، وأمّا هذه الحركات والطّقوس المعمول بها، من ركوع وسجود وتقبيل وتمسّح وتقريب القرابين، وأشياء أخرى، سواء في الدّيانات السّماويّة، أو الدّيانات الوضعيّة التي تعدّ بالآلاف، فهي منبعثة كلّها من بذرة في القلب، الذي يعتقد قوّة وسلطانًا غيبيين في هذا الشّيء الذي يدين له.

هذا هو أصل الدّين، وهو واحد، فمن أرشده الله تعالى كانت عقيدته متّجهة إلى خالق السّموات والأرض، لا إله إلاّ هو، وهذا الذي يدان له..." [1]

4 – بيان معنى الرّبوبيّة التي إن فقهت حقيقتها أنتجت عقيدة صحيحة، وأعانت على تجسيد عمل العقيدة في السّلوك، ونقلت القول إلى الفعل، وحدّدت حركة المؤمن الموفّي الملتزم بالعهد، الذي لا يقول إلاّ ما يفعل، ولا ينطق إلاّ بما يحقّقه في الواقع. هذا التّوضيح وهذا التّدقيق هو لبيان ما يجب تبنّيه واعتناقه للسّير بوضوح وسلامة في هذه الحياة. وذهب الشّيخ بيّوض بعيدًا؛ حين انطلق من العقيدة لبيّن أنّ سيرورة الحياة وضمان استمرارها لا تكونان إلاّ بفقه حقيقة الرّبوبيّة، والإصدار في الحياة عن فحواها وما تتطلّبه العقيدة. يقول الشّيخ بيّوض تفسيرًا وتبيينًا لقوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين قالُوا رَبُّنَا الله...﴾ (سورة فصّلت/ 30) " ليس المراد أنّهم نطقوا بألسنتهم فقط، وإنّما قالوا هذا بألسنتهم تعبيرًا عن العقيدة الرّاسخة المتمكّنة في قلوبهم؛ اعترافًا منهم بأنّ الله هو ربّهم. وكلمة (الرّبّ) تتضمّن كلّ شيء، بداية من

---

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورة الفتح)، ص: 325.

الإيجاد، وما يقتضيه الإيجاد من الإمداد الذي به استمرار الحياة إلى يوم الممات، فهو الذي وهب لهم الحياة والوجود، وكلّ ما يتمتّعون به من نعمٍ، في أبدانهم ونفوسهم وعقولهم وأموالهم وأهليهم." [1]

إنّ المعاني والأبعاد التي يقف عليها من يقرأ تفسير الشّيخ بيّوض للجملة (إنّ الذين قالوا ربّنا الله...) تتوفّر لديه؛ نتيجة المنهج التي اتّبعه الشّيخ في توضيح الدّلالة، وتصحيح الخطأ في استيعاب المفهوم، ثمّ الاهتداء بعد ذلك إلى السّلوك الصّحيح، وتطبيق ما تدعو إليه الجملة في الآية القرآنيّة.

5 – ربط الاستقامة بالعقيدة. علّق الشّيخ بيّوض على جملة (ثمّ استقاموا) يراجع تفسير سورة فصّلت ص: 470 وما بعدها)

6 – لا منهج في باب العقيدة إلاّ منهج القرآن: يرى الشّيخ بيّوض أنّه مادام موضوع العقيدة الإسلاميّة هو (الغيب)، الخارج عن المشاهدة، والعصيّ عن الإدراك الحقيقي الصّحيح، وما دامت سلامة العقيدة تشترط اليقين في التّصوّر، والقطع والتّصديق، من دون إخضاع ذلك للعقل القاصر عن معرفة الحقيقة. كان لابدّ من اللّجوء إلى المصدر الذي يتكفّل بالقيام ببثّ اليقين، وزرع الطّمأنينة في القلب، محلّ الاعتقاد، فالعقيدة ليست كالأشياء الماديّة والمحسوسة، التي تخضع للعقل، ويحتكم النّاس إليه لتصوّرها، وتقدير قيمتها، وبَعْدَها الاستجابة لما تشير به، أو تدعو إليه. فالعقيدة لا يصلح لضمان سلامتها من الزّيغ والانحراف سوى الوحي الصّادق، الذي

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي غافر فصّلت)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1428هـ/ 2007م، ص: 468، 469.

جسّده القرآن الكريم: " لا منهج في باب العقيدة إلاّ منهج الله تعالى في كتابه الكريم." (1)

هذا التّحديد لمصدر استقاء العقيدة، ومعرفة حقيقتها وتشرّبها، يؤصّل وصف القرآن الكريم بأنّه كتاب عقيدة، ويؤكّد سلامة منهج الشّيخ بيّوض في درس العقيدة؛ باعتماده على القرآن أساسًا في عمليّة العرض.

7 – عدم إلزام المؤمن اعتقاد رأي معيّن بعدم الدّليل القاطع: منهج الشّيخ بيّوض يقوم على التّحديد والتّأصيل والتّأسيس للعمل الصّحيح، في هذا السّبيل يشدّد على عدم إلزام المؤمن اعتقاد رأي ليس فيه دليل قاطع، كما ينكر تخطئة من اعتقد رأيًا مخالفًا، من دون دليل قاطع أيضًا؛ حرصًا منه على تحصين العقيدة من الانزلاقات والولوج بها في التّرهات والزّج بها في المتاهات، فهو يردّد في المسائل التي هي من هذا النّوع: " المسألة ليست مسألة اعتقاد" (2)

مثال ذلك ما عرض له في مسألة عرض الأمانة على السّموات والأرض والجبال والإنسان، فبعد أن سرد بعض الرّوايات التي فصّلت القول في الموضوع، تحرّج وتوقّف عن تصديقها، وأرشد إلى عدم الخوض في مثل هذه المسائل والمغامرة بالرّأي الذي قد يقوّل على الله ما لم يقل. فالابتعاد عن التّأويل أسلم، إلاّ إذا جاءنا شيء عن طريق الوحي. قال السّيخ بيّوض في شأن هذه الأمانة، وهي غيب: " ولكنّ هذه

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة العنكبوت)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1422هـ/ 2001م، ص: 105.

2 – في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء) ط2، نشر جمعيّة التّراث، القرارة، غرداية، الجزائر، (د.ت)، ص: 49.

الأمور كلّها غيبيّة، والأمور الغيبيّة لا يقال فيها بالرّأي، فلو ثبت عن النّبيء ﷺ شيء صحيح لقبلناه على الرّأس والعين، ونفوّض الأمر إلى الله، ولكن ليس هناك تفسير عن النّبيء ﷺ عن هذا العرض، ولا عن زمانه، ولا عن كيفيّته، فكلّ ما قاله النّظّار في القرآن والمفسّرون، من عهد الصّحابة رضي الله عنهم إلى اليوم، كلّه تخمين. " [1]

كثيرًا ما يردّد عبارات في هذا المعنى، كقوله: "...وعلى كلّ فهذا أمر غيبي" [2]. وقوله: "...وإذن لا يدرك أمر الدّين إلاّ بالوحي" [3]...

أكّد على هذا في تعليقه على ما روي عن حقيقة عذاب أبي طالب، وما تنال نار جهنّم منه، سرد الرّواية التي نصّت على أنّه أقلّ أهل النّار عذابًا يوم القيامة؛ إذ يقف في ضحضاح من النّار، يغلي بها دماغه أبد الآبدين، قال: " هذا ما ورد، والعلم عند الله، وليس هذا بالعقيدة التي يجب أن نعتقدها، وإنّما الذي نعتقده أنّ أصحاب النّار هم دركات، وعذابهم متفاوت كما أنّ أصحاب الجنّة درجات، ونعيمهم متفاوت." [4]

في تناوله " القول بخلق حوّاء من ضلع آدم "، بيّن أنّها مسألة ظنيّة، لا ترقى إلى اليقين والاعتقاد. ومسألة خلق آدم من تراب، كما وردت في كثير من آيات الذّكر الحكيم. يقول الشّيخ بيّوض: "...هذا ما يجب أن نقوله؛ حتى لا يعتمد أحد بعض الرّوايات — وإن

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1424هـ/ 2003م، ص: 695. ينظر نماذج من هذه التّنبيهات الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 80.

2 – في رحاب القرآن (تفسير سورة الفتح)، 244.

3 – المصدر السّابق، ص: 246.

4 في رحاب القرآن (تفسير سور الدّخان . الجاثية . الأحقاف . محمد)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1430هـ/ 2009م، ص: 330، 331

اشتهرت – ويعتقدها، حتّى لا ينكر من خالفها، أو قال بغيرها. والخطر كلّ الخطر إذا وصل إلى حدّ التّكفير والتّفسيق والتّضليل." [1] هذه الملاحظة مهمّة؛ إذ أنّها:

1 - تنبّه إلى تجنّب الاشتغال بما لا طائل وراءه.

2 – تدعو إلى التّحرّي في تقبّل الأخبار، ونقد الرّوايات.

3 – تفرّق بين ما هو عقيدة، يجب التّمسّك والالتزام به، وما ليس عقيدة، مرتبته في التمسّك به لا يرقى إلى مستوى العقيدة الحقيقيّة.

4 – تعين على تصفية العقيدة من الشّوائب، وصيانتها من العبث والتّلاعب وتوجيهها الوجهة غير الصّحيحة، وهو ما أفسد على النّاس دينهم، وحرّف سلوكهم.

5 – تساعد في المحافظة على وحدة المسلمين، وعدم الانزلاق إلى التّفسيق والتّكفير، اللّذين هما نتيجة مباشرة للزّيغ في العقيدة، والجهل بأحكام الله، وعدم فقه أسرار الشّريعة.

بذلك يكون الشّيخ بيّوض قد أصاب في منهجه في عرض العقيدة، ومنحه قوّة وأهميّة وقيمة، وقد أعانه هذا المنهج على القيام بعمله الإصلاحي أحسن قيام، أو على الأقلّ حقّق به كثيرًا ممّا خطّطه في دربه الإصلاحي.

ذكر الأستاذ حمّو الشّيهاني بعض الموضوعات ومسائل الغيب التي توقّف الشّيخ بيّوض عن رواية تفاصيلها، وكان نقله لها بقصد الرّدّ عليها، والتّنبيه إلى عدم

---

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي مريم وطه)، ص: 221. ينظر الفكر العقدي، ص: 135، 136.(يتأكّد من المصدر)

الخوض فيها، وعدم البقاء أسير ما روي: الصّور الذي ينفخ فيه [1]، واللّوح المحفوظ [2]، والمستثنون من الصّعق عند النّفخة الأولى [3]، وكيفيّة شهادة الرّسول ﷺ على أمّته [4]، وتفاصيل حياة الجنّ [5]... وكان يعلّل ذلك بمثل قوله: " فالأمر كبير جدًّا والمقام خطير، وهو مزلّة أقدام، ولا يمكن أن يقال في هذه المواطن بالرّأي، بل لا يجوز لأنّه غيب مطلق، لا يعتمد فيه إلاّ على صريح الكتاب، أو صحيح السّنّة...فلنفوّض الأمر إلى الله تعالى، فنؤمن بما ورد في القرآن كما ورد..." [6]

كان هذا التّعليق على ما هو المقصود من شهادة كلّ رسول أمام الله تعالى للمؤمنين المصدّقين برسالته، وعلى الكافرين والمنافقين المكلّفين المكذّبين، بحسب أعمالهم، وبعد أن عرض الإشكال الآتي: هل يشهد الرّسول ﷺ لمن كان معه من الصّحابة في زمانه؟ وعلى المشركين والمنافقين في حياته؟ على أمّته كلّها إلى قيام السّاعة؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي عجز العلماء عن إيجاد أجوبة شافية لها...

بقيّة الرّسل أيضًا ذكر الله ﷻ أنّهم ينفون علمهم بأحوال أقوامهم؛ من حيث الإجابة والرّفض لما بلّغوهم إيّاه: " فالله تعالى يجمع الرّسل، من شيخ المرسلين نوح ؏،

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة يس والصّافات)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1426هـ/ 2005م، ص: 210.

2 – في رحاب القرآن، تفسير سورة الأنبياء(رقم:)، ص: 279.

3 – في رحاب القرآن، تفسير سورة الزّمّر(رقم:)، ص: 486. في رحاب الله، تفسير سورة النّمل (رقم:)، ص: 207، 208.

4 – في رحاب القرآن، تفسير سورة الأحزاب، ص: 409، تفسير سورة الشّعراء (رقم:)، ص: 467.

5 – في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف (رقم:)، ص: 225.

6 –. في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 409. ينظر الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 86

ومن قبله، إلى خاتم النّبيئين محمّدﷺ، فيسألهم: بماذا أجابكم قومكم؟ هل صدّقوكم واتّبعوكم؟ هل أجابوا بالقبول أم بالرّفض؟ فيقولون: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾. وحقيقةً، هذا أمر أوقع إشكالاً كبيرًا في المقارنة بين الآيات، فالرّسل من جهة هم شهداء على أممهم، وسيسألون عنها، وهم من جهة أخرى إذا سئلوا يقولون: (لا علم لنا)" [1]

مرتكزات الشّيخ بيّوض في منهجه

يمكن للدّارس أن يقف بكلّ سهولة على المرتكزات التي يستند إليها منهج الشّيخ بيّوض في درس العقيدة. الشّيخ لم يعلن عنها، ولم يخطّط لها، وقد جاءت عفويّة، وبشكل تلقائي. فهذه المرتكزات هي ممّا يجب أن يوليها الأهميّة الكاملةَ المتناولُ العقيدة، والذي يهدف إلى التّربيّة الصّحيحة، والتّنشئة السّويّة.كما أنّه لن يتمكنّ الاهتداء إليها، وتوظيفها أحسن توظيف إلاّ الماهرُ المتمكّن علميًّا وتربويًّا.

إنّ حذق الشّيخ بيّوض عمليّة تقديم العقيدة، وامتلاكه منهجًا واضحًا في ذلك– باهتدائه إلى نقط الارتكاز في هذا السّبيل– نابعان من طبيعة شخصيّته الإصلاحيّة التّربويّة، التي تبحث في المجالات التي يجب إصلاحها، والوسائل النّاجعة في الإصلاح الشّامل، والتّربيّة الصّحيحة. فكانت العقيدة الحجرة الأولى في هذا العمل الكبير، وكانت المحور الذي دارت عليه العمليّة التّربويّة عنده. له في هذا المنهج مرتكزات، فما هي هذه المرتكزات؟

1 – التّركيز على إرادة الله ومشيئته وقوّته

1 – المصدر السّابق، ص: 408، 409.

في تعليق الشّيخ بيّوض على قوله تعالى:﴿ ... ولِلّه جُنُودُ السّمَواتِ والأَرْضِ وكانَ اللهُ عليمًا حَكِيمًا﴾ (سورة الفتح/ 4) وعلى قوله: ﴿ولِلّه جُنودُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عزيزًا حكيمًا ﴾(سورة الفتح/7), وفي بيانه الفرق بين (عليمًا حكيمًا، وعزيزًا حكيمًا) قال: " ممّا يدخل في علم الله تعالى دخولاً أوّليًّا أنّه يعلم حيث ينزل سكينته، كما يعلم حيث يجعل رسالاته، فهو وحده يعلم القلب الذي يستحقّ أن ينزل عليه سكينته، حتّى يعيش مطمئنًّا مستسلمًا لأمر الله، راجيًا ما عنده، وقواعد الإسلام أربع: العلم والعمل والنّيّة والورع، وأركانه أربعة: الاستسلام لأمر الله، والرّضا بقضاء الله، والتّفويض إلى الله، والتّوكّل على الله، وإنّها لأركان حقًّا ".[1]

عقّب الله تعالى بهذه الآية الكريمة (رقم: 7) إثر الكلام على تعذيب الكفّار والمنافقين الظّانين بالله ظنّ السّوء، الذين قالوا: إنّ الله لن ينصر عبده ووليّه محمّدًا ﷺ وأصحابه، ولن يهزم أعداءهم. ولكنّه نصرهم نصرًا مؤزّرًا، فهذا المقام مقام عزّة؛ قال: ﴿ وكان الله عزيزًا حكيمًا ﴾...قرن الحكمة مع العليم أوّلا، ثمّ قرنها مع العزيز ثانيًا، فالله تعالى قويّ حكيم، يضع الأشياء في مواضعها، يعلم من يستحقّ النّصر فينصره، ومن يستحقّ الكسر فيكسره، وكلّ شيء بقضائه وقدره، ولكنّ القضاء والقدر يجريان بالحكمة، فلا شيء من أمر الله يحدث صدفة واعتباطًا، وإن كانت الأشياء تبدو لنا نحن وكأنّها تقع مصادفة؛ لأنّنا لا نرى إلاّ أسبابها الظّاهرة، وأمّا حقائقها فنجهلها، ولا نعلم عنها شيئًا." [2]

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورة الفتح)، ص: 235.

2 - المصدر السّابق، ص: 238، 239.

الغاية من درس العقيدة هو ترسيخ الإيمان في القلب، لينتج عملاً صالحًا، وسلوكًا طيّبًا؛ لذا كان منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة يرتكز على الوحدانيّة، وبيان مفهومها، والتدرّج مع المخاطب إلى أن يصل معه إلى إدراك حقيقتها. هده العمليّة تبلغ به إلى الاعتراف بقدرته المطلقة، ثمّ تنتقل به إلى التّفويض الأمر إليه، والخضوع لإرادته... قال الشّيخ: " والغرض من التّفكير في خلق الله، هو الوصول إلى الحقيقة الكبرى، إلى حقيقة الحقائق، وهي أنّ لهذا الكون - علويّة وسفليّة، وللمخلوقات جميعها — خالقًا مدبّرًا حكيمًا واحدًا لا شريك له. مريدًا فعّالاً لما يريد، عليمًا بكلّ شيء؛ لأنّه خالق كلّ شيء..." [1]

تفويض الأمر إلى الله من شروط الإيمان، لذا لما تعجّب الصّحابة من قوله تعالى: ﴿...الذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ...﴾ (سورة الفرقان/ 34) وسألوا الرّسول ﷺ عن كيفيّة مشي الأشقياء على وجوههم، إذ بدا هذا غريبًا، فقال لهم: " أليس الذي أمشاه على الرّجلين في الدّنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة "[2] أي إنّ الله قادر على كلّ شيء، فلا غرابة فيما نصّ عليه أو أورده في الآية.

علّق الشّيخ بيّوض على جواب الرّسول ﷺ بقوله: " الجواب بسيط جدًّا، القصد به تفويض الأمر إلى الله. ولنقل مثل هذا، ولنفوّض الأمر إلى الله تعالى" [3]

1 - في رحاب القرآن (تفسير سور: الدّخان . الجاثية . الأحقاف . محمّد)، ص: 173.

2 - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم)، حديث 4482، 4/ 1784.

3 - في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، ص: 193.

يعلّمنا الشّيخ بيّوض درسًا، ويدعونا إلى وجوب التّسليم بما ورد من أخبار عن عالم الغيب، وإن خالفت مألوف النّاس في حياتهم ومشاهداتهم...؛ لأنّ قوّة الله لا حدود لها، وإرادته ليس لها رادّ، ومشيئته لا منقض لها، فما على المؤمن إلاّ أن يفوّض الأمر إلى صاحب القوّة والإرادة والمشيئة فيما جاء عن دليل قطعي عن طريق الوحي. عقّب ووضّح الشّيخ بيّوض إخبار الله ﷻ بأنّ المؤمنين يتحلّون يوم القيامة بأساور من ذهب قائلاً: " فلا ننكر إذن هذا لأنّنا لم نفهمه، أو لم نألفه، وأحكام تلك الدّار ليست كهذه" [1]

علّق الأستاذ صالح حمدي على المقدّمة التي قدّم بها الشّيخ بيّوض تفسيره سورةَ القصص بقوله: " وجّه الشّيخ في هذه المقدّمة العقول إلى تدبّر المحور الذي تدور حوله السّورة؛ مستنتجًا إيّاه ممّا جاء فيها من آيات، خاصّة قصّتي فرعون وقارون، اللّتين استغرقتا حيّزًا لا بأس به من السّورة. هذا المحور هو موضع الاعتبار والادّكار، إنّه ترسيخ الإيمان بالقدرة الإلهيّة، ونفوذها المطلق في الكون، والتّذكيرُ بهذه الوحدة الموضوعيّة للسّورة له أثر بالغ في إجلاء وتثبيت قضايا العقيدة، وقضايا الإسلام عامّة." [2]

2 – التّركيز على الإيمان قاعدة في المنهج

قاعدة الإيمان إحدى مرتكزات منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة، فالإيمان هو الذي يبعث على إقرار الوحدانيّة لله، ويدعو إلى تفويض الأمر إليه, كما يضمن اتّزان شخصّيّة المؤمن في الحياة. إنّه رأس مال المؤمن، فمن ضيّع إيمانه، فقد خسر

---

1 – في رحاب القرآ ن (تفسير سورة الكهف)، مطبعة النّخلة، الجزائر، 1994م، ص: 175. (ينظرالفكر العقدي، ص: 88.

2 – مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام بيّوض، ص: 66.

خسرانًا مبينًا، خسر آخرته التي إليها مآبه ومآله ومثواه الأخير والدّائم. هو مثل التّاجر، إذا خسر رأس ماله خسر كلّ شيء. بيّن الشّيخ هذا المعنى حين تفسيره لقوله تعالى: ﴿...والذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِالله أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾(العنكبوت/ 52) وصف الله الكافرين بالخاسرين؛ لأنّهم خسروا رأس المال: " ورأس المال هو إيمانك، والرّبح الأوّل للإنسان المكلّف إنّما هو إيمانه دائمًا، ومن احتفظ برأس ماله لا يسمّى خاسرًا...ولما كان الإيمان هو رأس المال، فإنّ كلّ من كفر فهو خاسر؛ لأنّه ضيّع رأس ماله الأوّل الذي يثبت بقاءه في النّعيم يوم القيامة." [1]

يقول حمّو الشّيهاني: " إذا كان المبدأ الإيماني هو الدّافع لقيام الشّيخ بيّوض بعمله الإصلاحي، فإنّ انطلاق العمليّة الإصلاحيّة من ترسيخ الإيمان في القلوب يشكلّ الوسيلة الفعّالة لتحقيق هذا الإصلاح، ذلك لأنّ إصلاح المجتمع يستلزم إصلاح أفراده؛ باعتبارهم لبناته الأولى التي يقوم عليها بنيانه، ومفتاح الصّلاح النّفسي والخلقي لهؤلاء الأفراد شيء واحد هو الإيمان [2] وقد اهتدى الشّيخ بيّوض للانطلاق من القاعدة الإيمانيّة في مختلف مجالاته الإصلاحيّة، معتقدًا ضرورة هذا المنهج، إذ يقول: " كان لزامًا علينا أن نعود، فنبدأ بما بدأ به الرّسل إلى الدّعوة إلى الإيمان، وتقريره في القلوب من جديد [3] لأنّ الإيمان الصّحيح إذا رسخ في القلب فاض في واقع الحياة، وتجلّى في كلّ المجالات." [4]

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة العنكبوت)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، ص: 228، 229. (ينظر الفكر العقدي، ص: 114.

2 – الدّكتور يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص: 318.

3 – في رحاب القرآن (تفسير سورة لقمان)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، ص: 177.

4 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 294.

إنّ قاعدة الإيمان مرتكز مهمّ في منهج الشّيخ بيّوض، يكثر الحديث عنه، إمّا للتّأسيس لعمله التّربوي والإصلاحي، أو للتّأصيل لنشاطه وحركته، أو للإقناع بضرورة هذا الجانب أو العنصر في إنشاء الحياة المستقرّة السّويّة، أو للتّذكير بما قد ينسى، أو للتّنبيه إلى أخطاء تنجم من سوء فهم قضايا الإيمان، أو الانحراف في توظيف الإيمان في السّلوك.

يطيل الشّيخ الحديث في قضايا الإيمان بخاصّة، إذا " أحسّ فيها من مخاطبيه الشّكّ؛ تأثّرًا بالأفكار الوافدة، وقد يصرّح الشّيخ بهذه الطّريقة. ومن ذلك قوله، بعد طول بيان في موضوع " تزيين سوء العمل للإنسان ": " هكذا إنّما أطلت في هذا البيان لنحذر من طبقة الملاحدة، وطبقة الشّباب المنحرفين، الذين يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا؛ بإنكار الألوهيّة، وإنكار البعث، وبالسّخريّة من شعائر الدّين، ومن المتمسّكين بها، ويظنّون أنفسهم العقلاء، وغيرهم الجهلة المغفّلين، إذ لا يؤمنون بما لا يرون، ويصدّقون بما لا حقيقة له الله وصف المؤمنين أوّل ما وصفهم بقوله: ﴿ الذِينَ يُومِنُونَ بِالغَيْبِ...﴾ (سورة البقرة/3)" [1]

ما يؤكّد أهميّة قاعدة الإيمان وكونها مرتكزًا أساسًا في منهج الشّيخ بيّوض، أنّه كان يحرص على استخلاص العبر من القصص القرآني، الذي يحكي عن الأنبيّاء والرّسل، ولا يغفل عن توجيه الأنظار إلى مواطن الإيمان في مواقفهم؛ قصدًا إلى إصلاح النّفوس، وتهذيب الطّباع، وتقوية الرّوابط بالعروة الوثقى، وتمتين العلاقة بالرّبّ الخالق الجبّار...يقول صالح حمدي: "...فكان الشّيخ كلّما تطرّق إلى قصّة نبيّ من

1 – في رحاب القرآن (تفسير سور الدّخان ـ الجاثية ـ الدّخان ـ محمد)، ص: 481 المرجع السّابق، ص: 138، 139.. (يتأكّد من المصدر)

أنبيّاء الله تعالى، أو وليّ من أوليائه، إلاّ وأردفها ببيان رسوخ إيمانهم، وشدّة صلتهم بربّهم، وحسن توكّلهم عليه؛ ممّا أثمر فيهم سلوكًا قويمًا" [1]

نسجّل في هذا الموضوع الملاحظة الآتيّة: إنّ الشّيخ بيّوض تمكّن من التّنبيه إلى أشياء خفيّة ودقيقة في موضوع العقيدة وحقيقة العقيدة؛ لترسيخ الإيمان في القلب، وتثبيت صفة التّذلّل والخضوع لله، وإبراز وحدانيّة الله وتفرّده بالعظمة، من خلال التّصرّف المطلق في خلقه، والتّفرّد بحكمة تسيير الأمور، وجعل ما يشاء في الدّنيا، وما يريد في الآخرة.

عن عدل الله المطلق في الآخرة وبيان أثر الإيمان به، عقّب الشّيخ بيّوض على قول الله تبارك وتعالى وهو يعرض حال الكفّار يوم القيامة، بعد أن رأوا مصيرهم: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ منِّي لأَمْلأَنّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة السّجدة/ 13)

" وقبل أن يجيبهم الله تعالى الجواب المسكت المفحم، عجّل بكلمة، أظهر فيها سلطانه وقهره وجبروته، وأنّ كلّ شيء يكون بإرادته، إذ ربّما يسبق إلى ذهن إنسان أنّ الكفرة عصوا ربّهم – حاشاه — رغمًا عنه، وأنّه لم يقدر على أن يحملهم على الإيمان، رغم قيام الحجج بإرسال الرّسل وإنزال الكتب، وتمييزهم بالعقل، مع ما في صدروهم من الفطرة التي فطر النّاس عليها: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾

لو شئنا لحملنا كلّ واحد على اتّباع طريق الهدى، ويجبر على ذلك جبرًا، ولكنّ حكمة الله اقتضت أن يخلق خلقًا مكلّفين، ويمكّنهم من الاختيار المطلق لما يريدون، ولكنّه يعلم ما سيختاره كلّ واحد منهم، ومن سيهتدي أو يضلّ، ولو شاء لانتزع من

---

1 – مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام إبراهيم بن عمر بيّوض، ص: 55.

قلوبهم الشّهوات، فلا يكونون إلاّ مهتدين كالملائكة، ولو شاء لساقهم إلى ما يريد منهم بالغريزة والإلهام كالبهائم. فكثيرًا ما يفهم البعض هذا المفهوم، وكأنّ فيه نوعًا من الظّلم، ولكنّه يستسلم على أنّ هناك ما يمكن أن تطمئنّ إليه النّفس من التّعليل...

بعد هذا عاد إلى الكلام على هؤلاء الكفرة، فقال: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ فَذُوقُوا عَذابَ الخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة السّجدة/ 14)." [1]

3 – القلب مناط الإيمان

الإيمان الذي جعله الشّيخ بيّوض قاعدة مهمّة، وركيزة رئيسة في منهجه في الدّرس العقدي، محلُّه القلب، لذا اهتمّ به، وقدّم فيه بعض الإضاءات وبعض الإيماءات؛ ممّا سمح لنا أن نعدّه أحد مرتكزاته في منهجه. يقول الشّيخ: " والقلب الذي يأمر وينهى هو سلطان الجسد، وهذه حقيقة لا يشكّ فيها، ولا أحد يستطيع أن يصدم هذه الآيات، أو يردّ ما ورد في الأحاديث التي تجعل القلب مناط السّعادة والشّقاء، ومناط الهداية والضّلال...

...فالقلب هو سلطان الجسد إذن، هو الملك الذي يصدر الأوامر والنّواهي، هو المتصرّف تصرّفًا مطلقًا، لهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جوفه... ﴾ (سورة الأحزاب/ 4)" [2]

---

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 80 – 82.

2 - المصدر السّابق، ص: 145، 146.

وَصْفُ الشّيخ بيّوض القلبَ بالسّلطان والملك والمتصرّف التّصرّف المطلق في إعطاء الأوامر والنّواهي، يكشف مدى تقديره له، وهو ما يبرّر المكانة والدّور اللّذين أولاهما له في منهجه. إنّ الشّيخ أعطى للقلب هذه القيمة ممّا استوحاه واستلهمه وتعلّمه من تناول القرآن والسّنّة للقلب، اللّذين عدّا صلاح الجسد والسّلوك من صلاح القلب.

تبدو لنا الأهمّيّة التي أعطاها الشّيخ بيّوض للقلب في النّقط الآتية:

أ – أهميّة القلب ودوره في احتضان العقيدة

بيّن الشّيخ بيّوض دور القلب في احتضان العقيدة، التي توجّه الإنسان الوجهة الصّحيحة، في أثناء تعليقه على الآيات التي تضمّنت دعاء سيّدنا إبراهيم عليه السلام [1] قال: "...فهذا القلب السّليم لا نجد له نموذجًا حيًّا إلاّ أن يكون كقلب سيّدنا إبراهيم إخلاصًا ونقاءً، قلب حنيفي مسلم أشرب حبًّا لله، وامتلأً بخشية الله في عقيدة راسخة صحيحة... فهو لا يتوجّه لغير مولاه في الدّعاء والابتهال، ولا يبتغي الوسيلة إلى غيره في أيّ حال من الأحوال، هو القلب الذي يعتقد ويقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي ونُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَمَاتِي لله ربِّ العالمِينَ ﴾ (سورة الأنعام/ 162) " [2]

ب – سلامة القلب وأثرها في الأعمال والسّلوك

قال الشّيخ بيّوض: "...وما الإيمان والعمل الصّالح وأنواع الطّاعات والقربات إلاّ نتائج طبيعيّة لسلامة القلب، إذ لا تصدر عنه إلاّ الأعمال السّليمة الصّالحة، على عكس القلب المغشوش المليء بالخبث، فلا يمكن أن تسلم معه أعمال الجوارح، ولا

1 – ينظر سورة الشّعراء، الآيات: 78 – 89.

2 – حديث الشّيخ الإمام، الحلقة الأولى، ص: 17.

أن تتّجه الوجهة الصّالحة، وصدق رسول الله ﷺ في حديثه الشّريف...: (ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب.) " [1]

ج – تطهير القلب من الخبث

قال الشّيخ منبّهًا من يخدع نفسه بالتّمويه والتنّصل من الالتزام بالعمل الصّالح، والاعتماد على طيبة قلبه، إنّ هذا تناقض سافر فاضح للحقيقة التي عليها صاحب هذه الدّعوى الباطلة: "...فضلّ من يظنّ أو يقول: (إنّ قلبي طيّب)، وهو يعمل الشّرّ، فليستحِ مثل هذا من ربّه، وليستحِ الذين يقولون إذا عوتبوا على ارتكاب المعاصي: (إنّ قلوبنا طيّبة)، ألا ما أقبح هذه القلوب...

لعمري إنّ هذا لهو الضّلال والمحادّة لله تعالى، فلتستحِ ولتستغفر الله، ولتتب إليه أفضل لك، لا أن تحاول أن تغطّي معاصيك التي لا تصدر إلاّ من قلب خبيث، بدعوى طيبة القلب... فالقلب الطّيّب لا يجتمع إطلاقًا مع العمل الفاسد، وكلّ إناء بما فيه ينضح، ولا يمكن لزقّ عسل أن ينضح بالقطران، ولا بزقّ القطران أن ينضح بالعسل" [2]

---

1 –المصدر السّابق، ص: 18. قدّم الشّيخ بيّوض هذا التّعليق على ما تضمّنته الآية الكريمة: ﴿ إلاّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقلبٍ سليمٍ ﴾ (الشّعراء/89)، وعدّ الشّيخ السّلامة وصفًا لطيفًا للقلب، ينظر المصدر نفسه، ص: 16 – 19. الحديث الذي استشهد به الشّيخ بيّوض جزء من حديث رواه النّعمان بن بشير. يقول الرّسول ﷺ في أوّله:»الحلال بيّن والحرام بيّن..." البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث 52، ج1، ص: 28.

2 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي الفرقان والشّعراء)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1420هـ/ 1999م، ص: 391، 392.

د – القلب مدعاة للوحدة

علّق الشّيخ بيّوض على قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوفه... ﴾ (سورة الأحزاب/4) قائلاً:" والمراد من قوله تعالى أن يحملنا على الوحدة في كلّ شيء، فبما أنّ لكم قلبًا واحدًا، فيجب أن يتّجه القلب إلى وجهة واحدة، وهي وجهة الله الخالق جلّ جلاله، لا يخاف إلاّ الله، ولا يرجو إلاّ الله، ولا يتّبع إلاّ الله...فالله واحد والقلب واحد وصراط الله واحد..." (1)

نظر كبير، وفهم عميق، وتنبيه دقيق، وتوجيه هادف، واستثمار جيّد لكلام ربّ العالمين، هذا ما يمكن تسجيله في تحليل الشّيخ بيّوض لما ورد في الآية في القلب. المتحكّم والموجّه لحياة الإنسان. تحليل لبّ ما حاء في الآية للبّ ما في جسد الإنسان، بَيَّنَ اللّب الذي تسعى كلّ التّشريعات الرّبانيّة إلى تركيزه في لبّ المؤمن، إنّه الوحدانيّة. هذا ما وصل إليه الشّيخ بيّوض من تفصيل القول في الآية، وهو تحليل وتفصيل لا يستطيعه، ولا يأتيه إلاّ من أوتي قدرة على النّفاذ إلى عمق الدّلالات، ومن يحذق الغوص إلى المعاني الدّقيقة. لكلّ ذلك كان القلب أحد مرتكزات الشّيخ بيّوض في منهجه في عرض العقيدة.

4 – التّركيز على المسائل العقديّة التي لها تأثير في السّلوك

ركّز الشّيخ بيّوض في درس العقيدة على المسائل التي تؤثّر في السّلوك، وبخاصّة ما يعين على الاستقامة وتصحيح المسيرة، والالتزام بشرع الله. نلاحظ في هذا السّياق أصالته في التّناول والمعالجة والتّوجيه؛ بالابتعاد عن اتّباع سَنَن من سبقه، إذا وجد عدم الجدوى في أساليب تناولهم الدّرس العقدي، أو رأى عدم استجابة المناهج المتّبعة لأهدافه الإصلاحيّة والتّربويّة، فهو كان يتّجه مباشرة إلى صلب الموضوع، ولا يبقى في

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، 146.

حدود التّعريفات العقيمة، ولا يضيف إليها ما يعقّد من أساليب تلقين العقيدة، إلاّ ما يراه ضروريًّا، ويخدم العمليّة التّربويّة بما يناسب الظّرف، وينسجم مع مدارك المخاطبين. قدّم الأستاذ حمّو ملاحظة مهمّة عن هذا المنهج: "...ودعاه هدفه الإصلاحي إلى عدم التّقيّد بما انضاف إلى التّعريفات من قيود. فلم يؤلّف الشّيخ كتابًا في العقيدة لترتيب مسائلها، وضبط تحديداتها، وصناعة الرّدود على المخالفين فيها، إنّما كان هدفه الإصلاح الشّامل، توسّل إلى تحقيقه بتفعيل العقيدة، وتحريك الإيمان في القلوب؛ ليقينه بأنّ ذلك أحسن طريقة لتخطّي العقبات الكؤود، وتحطيم الحواجز الوهميّة، التي كان للتّراث العقدي دور كبير في نصبها، فحالت بين العبد وبين بلوغ العديد من مقاصد الدّين، منها الوحدة الإسلاميّة." [1]

هذه الملاحظة قيّمة، تبيّن جانبًا مهمًّا من منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة، وتفصح عن نقط الارتكاز في عمل الشّيخ، التي تتبنّى منهجًا وهدفًا في آن واحد، كما تبرز شخصيّته المتميّزة. وتسوق إرشادًا لطريقة التّعامل مع مسائل العقيدة، لتوتي نتائجها التّربويّة والتّكوينيّة. إلى غير ذلك من الفوائد والنّتائج التي يمكن جنيها من منهج الشّيخ بيّوض؛ باستحضار هذه الملاحظة.

لا يكتفي الشّيخ بيّوض بالمسائل العقديّة التي لها علاقة بالسّلوك في عمومها، بل كان يهتمّ كثيرًا بما له علاقة بالجانب التّعبّدي، وما له صلة بالحياة الواقعيّة، وكان يضفي على معالجاته وتحليلاته المسحة الواقعيّة من خلال ربطها بما عايشه من أحداث، وما خبره منها وكان طرفًا فيها، أو حدثت في عهده، سواء كانت محليّة أم إقليميّة أم عالميّة. إنّ ذلك يرتبط بمفهومه للإصلاح والتّربيّة والتّوجيه، ويفهم في سياق

1 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 127.

عمله التّغييري والتّجديدي إلى الأصلح بالأمّة، والرّجوع بها إلى جادّة الصّواب. من هنا نسجّل له تركيزه على مسائل الاعتقاد لاستخلاص العبر منها. [1]

سجّل حمّو الشّيهاني هذه النّقطة قائلاً: " فكان يركّز الكلام على قضايا العقيدة التي ترتبط بها آثار عمليّة، متعلّقة بالجانب التّعبّدي أو الحياتي، ويعالج من خلالها صور الفساد التي طالت مجتمعه الذي خبره، مستثمرًا أحداث العالم وأخباره التي يسايرها، وكان لها حضور وتأثير في دروسه. قال الشّيخ عن نفسه، بمناسبة تطرّقه إلى علاج إحدى القضايا الاجتماعيّة: " خذوا هذه الحكمة ممّن قضى نصف قرن في حلّ المشاكل." [2]

كان – أحيانًا – ينبّه إلى القيمة العقديّة للمسألة؛ للفت نظر المخاطب إلى ضرورة إدراك تلك القيمة؛ حتّى يتأثّر سلوكهم ويرتبط بها، ليكيّف هذا السّلوك بما ينسجم مع نقطتي الارتكاز في حياة المؤمن: نقطة المنطلق، وهي المبادئ والأصول، ونقطة المنتهى، وهي الغاية، ليكون سيره في خطّ مستقيم، يمتدّ بين النّقطتين: كما حدّدته الآية الكريمة:﴿ وأنَّ هَذا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون ﴾ (سورة الأنعام/153)

قال عن البعث: " هذه قيمة عقيدة البعث، وهي مهمّة جدًّا في تقويم سلوك الفرد، وعلى قدر تمكّنها من القلب، واستشعارها في كلّ حين يزداد المرء صلاحًا وتقوى، وعلى قدر ضعفها واستبعادها يزداد المرء فسادًا وشقاءً. " [3]

---

1 – ينظر المرجع السّابق، ص: 136، 137.

2 – المرجع السّابق، ص: 113. ينظر في رحاب الله (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، 686.

3 – في رحاب الله (تفسير سورتي الأنبيّاء والحجّ)، 1417هـ/ 1997م، ص: 326.

قال عن مسألة الرّوح، وبيّن لماذا لم يفصّل الله ﷻ القول فيها، ومع أنّه قال في القرآن: إنّه تبيان وتفصيل لكلّ شيء، وإنّه أنزل ما فيه شفاء للنّاس، وفي هذه المسألة لم يشف غليلهم، ولم يزل حيرتهم...تولّى الشّيخ بيّوض الإجابة – حتّى ولو لم يوجّه إليه السّؤال – فمن واقع ما كان يعيشه، ويعرفه من علاقة النّاس بالعقيدة، وما يبدونه من سلوك، ينمّ عن انحراف في الفكر، وتنكّب عن جادّة الصّراط، وابتعاد عن الفطرة التي فطر النّاس عليها. قال الشّيخ بيّوض: " إنّ البشر هم الذين أمرضوا أنفسهم بهذه القضيّة، وإلاّ فماذا يتعلّق بمعرفتنا للرّوح من أحكام المعاملات والعبادات والأخلاق؟ لا شيء أبدًا, ليس لها أيّ علاقة ممّا تقتضي معرفته لإصلاح المعاش والمعاد.نعم يزداد بها الإنسان علمًا. لكن هل يزداد بها قربى إلى الله؟ هل هو ضروري لتقويم عوجه في خلقه وعمله وعقيدته؟ لا..." [1]

سجّل الأستاذ حمّو الشّيهاني عن الشّيخ بيّوض إرشاده: " الأمّة وصرفها عن الاشتغال بقضايا المتشابه التي لا يتعيّن عليها معرفة حقيقتها، وهي مظنّة الزّيغ في الاعتقاد والفرقة بين العباد، وتوجيهها إلى الاهتمام بما ينفعها في المعاش والمعاد." [2]

ردّ الشّبهات وتصحيح الفهم الخاطئ والتّأويل الفاسد

منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة يتميّز بالدّقة والتّحرّي والكشف عن البعد في المسألة التي يتناولها، لذا كان ممّا يجتهد فيه الضّبطُ والتّصحيح، وترشيدُ

1 – في رحاب الله (تفسير سورة الإسراء)، ص: 163، ينظر مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام إبراهيم بن عمر بيّوض، ص: 98.

2 (الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 103.

التّأويل وردُّ الشّبهات؛ حرصًا منه أن يأتي الدّرس العقدي بالنّتائج المرجوّة، وهو تلقين العقيدة الصّحيحة، التي تعين على الصّلاح في العمل.

مثلاً في موضوع تعامله مع روايات المفسّرين، التي تتناول قصص الأنبيّاء الواردة في القرآن الكريم، كان يفحص ما يقرأ منها، وينقدها بميزان العقيدة، ويتحرّى ما يجب أن يعتقد في حقيقة أنبيّاء الله، فما كان منها مخالفًا للشّرع، قد يذكره ليبيّن فساده وتجنّبه الحقيقة، وبعده عن شرع الله، ثمّ يقوم بالنّقد والتّصحيح والإرشاد والتّوجيه؛ ليكون للدّرس العقدي مبرّر لتقديمه. يضيف الأستاذ صالح حمدي:"...وما كان منها غير مخالف للشّرع، فإمّا أن يكون موافقًا له فيحقّه، وإمّا أن يكون مسكوتًا عنه فيذكره استئناسًا، مع توقّفه عن تصديقه أو تكذيبه، وقد يرجّح بالقرائن عند اختلاف الرّوايات، مع عدم الجزم لما توصّل إليه..."[1]

كان الأستاذ صالح دقيقًا في تسجيل هذه النّقطة، التي تكشف عن الرّصد الجيّد لتناول الشّيخ بيّوض مسائل العقيدة، التي مظانّها القصص الواردة في القرآن الكريم. في الوقت نفسه تبرز دقّة الشّيخ بيّوض في التّعامل مع الرّوايات التي ساقها المفسّرون عن القصص القرآني. فتصنيف الشّيخ لهذه الرّوايات - أو ما استنتجه الأستاذ صالح – يدلّ على قوّة منهج الشّيخ في عرض العقيدة في هذا الموضوع، أو هذه الوسيلة (وسيلة القصّ)، المنهج الذي يقوم على عرض الرّوايات على ميزان الشّرع، ثمّ تحكيم معايير موضوعيّة دقيقة فيما لم يخالف الدّين.

لينصف الأستاذ صالح حمدي الشّيخ بيّوض قدّم الملاحظة؛ ليدفع عنه شبهة قد تلصق به، التي قد تأتي من الفهم السّقيم، أو المبتور عن السّياق: " ومع إيمانه

1 - مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام إبراهيم بن عمر بيّوض، ص: 81، 82.

العميق بأنّ قصص القرآن أهمّ وسيلة لتقرير العقائد وتثبيتها، وإصلاح النّفوس من خلالها، إلى جانب ذلك قناعته الرّاسخة بأنّ القرآن لا يتناول من الأخبار إلاّ ما فيه العبرة، فالأفضل لدى المؤمنين به عدم الخوض فيما سكت عنه. " [1]

في موضوع الإسرائيليّات التي تصدّى لها الشّيخ، بنيّة ردّ الشّبهات، وتصحيح المفهومات، وترشيد التّأويل؛ لتنقية العقيدة ممّا يشينها، وبخاصّة ما يتعلّق بحياة الأنبيّاء والرّسل قال عن قضيّة داود عليه السلام والخصمين، التي تعدّدت فيها الرّوايات واختلفت، وشابتها وشانتها الإسرائيليّات: " لا يجوز أن تذكر أو تروى إلاّ لردّها ودحضها؛ لأنّ فيها طعنًا في النّبوّة والرّسالة، واتّهامًا للأنبيّاء والمرسلين، بما لا يليق بهم كبشر معصومين. " [2]

من النّقط التي تناولها في موضوع ردّ الشّبهات وتوضيح المفهومات؛ قصد تصفية العقيدة ممّا يشينها فيستقيم العمل، توضيحُ المدلول الحقيقي للألفاظ التي قد تحتمل معاني كثيرة، مع تأصيل ما يتبنّاه، واستيحائه أو تقريره ممّا وعاه من روح الشّريعة ومقاصدها؛ هادفًا بذلك إلى منع التّلاعب بالدّين، وإبعاد الفهم السّقيم لأحكام الشّرع، ونبذ التّأويل الخاطئ لآيات القرآن، التي تتضمّن مفهومات خاصّة. من هذه المفهومات " عدم اشتراط دخول العمل الصّالح في مفهوم الإيمان " يقول الشّيخ: " أمّا مفهوم كلمة (إيمان) هل يدخل فيه العمل الصّالح أم لا؟ فهذا لا يهمّ، ولو كان محلّ نزاع، فهناك بعض الآيات تدلّ على أنّه دخل في مفهومه العمل

1 – المرجع السّابق، ص: 82..

2 – في رحاب القرآن، تفسير(سورتي ص والزّمر)، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1427هـ/ 2006م، ص: 71.

الصّالح، وبما أنّ الله تعالى يعطف العمل الصّالح دائمًا على الإيمان، قال بعض: إنّ العمل الصّالح غير داخل في مفهوم الإيمان.

ولكن كلّ هذا لا يضرّ، وإنّما الذي يضرّ، والذي لا يجوز أبدًا، ويعتبر مروقًا من الملّة والشّريعة، أن يعتقد أحد أنّه يجازى على عقيدة قلبه، وإن لم يعمل العمل الصّالح، الذي يجب عليه شرعًا. هذا الذي يخالف ما في القرآن، من فاتحته إلى خاتمته، ومخالف لكلّ ما ورد في الحديث." [1]

توضيح مهمّ، وتدقيق ضروري، وتوضيح واجب؛ لتقديم الدّين للنّاس كما جاء به الوحي، لتجنيب الرّكون إلى مفهومات خاطئة، تضلّل النّاس، وتخدع النّفوس، وتغرّر بالبسطاء، أو تلقي بأصحاب الأهواء إلى التّهلكة.

عرض الشّيخ بيّوض لمسألة أخرى تتعلّق بعلاقة العلم بالإيمان، فردّ على من يحاول تضليل النّاس؛ بافتعال التّنافر بين العلم والإيمان، والدّعوة إلى الاحتكام إلى العلم، دون سواه في مجال المعرفة، وعدّ ما ثبت بالمحسوس والملموس والتّجريب علمًا، وغيره لا اعتراف به. وقد استبعدوا من تفكيرهم ومناهجهم ما هو غيب، ومنه ما يدخل في صميم العقيدة.

نبّه الشّيخ إلى أنّ هذه مغالطة، بل هي بلادة، وأفن في الفكر، وعطن في العقل، فليس العلم الصّحيح خصمًا للدّين ولا للعقيدة، بل هو داعم للإيمان، إذا سلك في طلبه وتوظيفه المسالك الصّحيحة، من المنهجيّة العلميّة. بل من الفطرة الصّحيحة أن يعترف العلم بقصور العقل عن إدراك كلّ الحقائق، منها بعض مسائل العقيدة، التي هي غيب، يجب على العلم أن يحترمها؛ بعدم الولوج إلى حرمها والبحث في تفصيلاتها

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي الأنبيّاء والحجّ)، ص: 217، 218.

ودقائقها...يقول الشّيخ بيّوض: " قد يقول: إنّ كثيرًا من العلماء ألْهوا العلم وكفروا بالله، فنحن نسمّي هؤلاء بلداء العلماء، إذ دعاهم العلم إلى الإيمان – شاءوا أم أبوا – فكفروا وألحدوا، وسلكوا مسلك الدّهريّين الذين يقولون: (الأرحام تدفع والأرض تبلع)، وإنّه ليس للإنسان حياة أخرى غير هذه الحياة الأولى. وقالوا: مثل ما قال الأوّلون، كما نصّ تعالى على ذلك بقوله: ﴿ كذلكَ قالَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَولِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَا الآياتِ لِقَومٍ يُومِنُون ﴾ (البقرة/ 118)، ولكنّ الآيات تثبت أنّ العلم يدعو إلى الإيمان، وأنّ العلماء الحقيقيّين يدخلون محراب الإيمان في كلّ يوم. فنحن نرى إذن تحقّق هذا الوعد، وسيتحقّق أكثر، وما يدرينا ما يكون بعد." [1]

في هذه النّقطة، يوجّه الشّباب المتعلّمين الباحثين، الذين يجرون وراء الحقيقة، ويحذّرهم من مغبّة الانزلاق؛ بسبب هذه النّزعة: " وإيّاكم أن تتورّطوا فيه ( )، ويقول أحدكم: أنا باحث، وأريد أن أقتنع، ويراه بعينه، ويشمّه بأنفه، ويذوقه بلسانه، أمّا ما وراء هذا فلا يؤمن به. ولا يزال مثل هؤلاء يطلبون الدّليل إلى ما لا يمكن التّوصّل إليه إلاّ عن طريق الوحي، الذي لا يؤمنون به." [2]

خصائص منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة

تميّز منهح الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة بخصائص عديدة، نذكر بعضها:

1 – **الاعتماد على القرآن في تقرير الحقائق** كالحديث عن القلب. سرد الشّيخ بيّوض مجموعة من الآيات القرآنيّة، التي تحدّثت عن القلب؛ ليوضّح من

---

1 - في رحاب القرآن (تقسير سورة الفتح)، ص: 330.

2 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي الشّورى والزّخرف)، ص: 576. (يتأكّد من المصدر)

خلالها أنّ مركز الإيمان هو القلب, وبذلك يقدّم الأدلّة القطعيّة القويّة على صحّة الحقيقة التي يريد تثبيتها في الأذهان.

ليبيّن الشّيخ لماذا أخبرنا الله تبارك وتعالى عن أنّ للإنسان قلبًا واحدًا – فقط – في جوفه، ولم يخصّ بهذا التّنصيص بقيّة أعضاء الإنسان [1]قال: " إذن لهذا الإخبار مقصد آخر، وغرض عال وسام، فما هو؟ لكي نفهم الحكمة من هذا علينا أن ندرك حقيقة القلب، وما هي وظيفته؟...المراد ما أودع الله تعالى من فهم وإدراك وفقه وتدبير، والمرء إنّما يفهم ويدرك ويفقه ويتدبّر بقلبه...

إنّنا لا نعلم العلاقة بين القلب والفكر والدّماغ، إذ هناك سرّ عجيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى، ولكنّنا بحسب ما نجد في القرآن أنّ كلّ ذلك منسوب إلى القلب، فمثلاً يقول الله تعالى: ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوَ اَلْقَى السّمعَ وَهُوَ شَهيدٌ﴾(سورة ق/ 37)،/ ولم يقل: إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له دماغ أو مخٌّ.

ويقول في شأن الكفرة الذين لا يتدبّرون آيات الله في الكون، ولا آياته في الكتب المنزّلة: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرونَ القرآنَ أَمْ علَى قُلوبٍ اَقْفالُها﴾(سوؤة محمّد/ 24). ويقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (سورة الأعراف/ 79).

2 – الشّموليّة

" إذا كانت الشّموليّة تعني التّكامل بين عناصر الإيمان، كالتّصديق والعمل، فإنّها تعني من العمل مفهومه الواسع الشّامل للجانب العبادي والحياتي"[2] في هذا المعنى، ولبيان مكوّنات الإيمان، وحقيقته التي يجب أن تدرك بدقّة؛ ليكون السّلوك سويًّا في

1 – الآية: 4، سورة الأحزاب.

2 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 107.

الحياة، أكّد الشّيخ بيّوض على الشّموليّة التي تمسّ كلّ حركات الفرد من دون استثناء، فيرتبط التّصديق القلبي بالعمل في كلّ المجالات والحالات والمواقف والظّروف، وحيث يكون الإنسان...لأنّ الدّين كما يقول الشّيخ: "كلٌّ لا يتجزّأ، بدءًا من أصول العقيدة في أعمال القلب، إلى أقلّ عمل يصدر من جارحة من الجوارح، فالدّين عقيدة وقول وعمل." [1]

الشّموليّة تعني العمل للدّارين، ابتغاء الآخرة وعدم نسيان الدّنيا، في توازن بين الجانبين الرّوحي والمادّي، لضمان عمارة الأرض، وتحقيق عبادة الله، بما يعمر الحياتين الدّنيا والآخرة. فالشّموليّة تحقّق قوّة الإسلام، وتحفظ التّوازن في الحياة. في هذا السّياق يؤكّد الشّيخ بيّوض أنّ الإسلام يرفض الرّهبنة والإعراض عن الدّنيا، والإحجام عن العمل، بل إنّ الإسلام القويّ يريد أن يكون إيمان المسلم دافعًا له كي يكون قويًّا في الجانبين الرّوحي المادّي. وإنّما: "كلّ شيء له وقته، إنّما الإنسان المنظّم يجعل وقتًا للمسجد، لله تعالى في أوقاته المعتادة المعيّنة، ووقتًا للعمل معيّنًا، لا يضيّع هذا ولا ذاك...فلا يخدم الآخرة إلاّ من خدم الدّنيا، ولا يخدم الدّنيا إلاّ من خدم الآخرة...والدّنيا والآخرة لا تتزاحمان إلاّ عند البلداء السّخفاء" [2]

الشّموليّة تدعو المسلم كي يقيم الدّين ويعمر الأرض، كما أمر الله تعالى، وكما تقتضي حكمته من خلقه وإنشائه، كما تساعد على النّشأة القويّة التي تقي من الهزائم. مثلا يذكر الشّيخ بيّوض أن من أسباب هزيمة المسلمين أمام اليهود، منها

---

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي الفرقان والشّعراء)، ص: 96.

2 - الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض، المجتمع المسجدي، إعداد محمد ناصر بوحجام، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1989م، ص: 129، 130.

حرب حزيران 1967م، فَقْدَ الشّموليّة في حياتهم، التّقصير في شؤون الدّنيا وأمور الدّين معًا. يقول الشّيخ: "...وقد نصر علينا اليهود، وهم أخبث خلق الله، وهو الذي يعلم لماذا نصرهم، وعلينا أن نتساءل ونتدبّر الحكمة، ولكنّنا لا نستطيع أن نردّ الأمر إلاّ إلى تقصيرنا في الجانب الدّيني والدّنيوي...فعلينا أن نجمع بينهما معًا، فنعدّ ما استطعنا من القوّة، حتّى القوّة النّوويّة مع الاعتماد على الله أوّلاً وأخيرًا." [1]

إذن إنّ " شموليّة الدّين تستغرق تصوّرات المسلم وقواه الرّوحيّة والماديّة وواقعه وتوقّعاته؛ لأنّ علّة وجوده تحقيق العبوديّة لله، فالدّين ليس مجرّد أفكاره أو شعور، بل هو يعني التّحرّك به في واقع الحياة اليوميّة." [2] هذا ما بيّنه الشّيخ بيّوض في كلّ ما تحدّث به في دروسه، وطبّقه في كلّ ما قام به من نشاط وعمل إصلاحي وتربوي.

3 – الواقعيّة

"خاصيّة الواقعيّة تمكّن المتلقّي من استيعاب معاني العقيدة الإسلاميّة، واكتساب آثارها العمليّة، فيتجاوز بذلك مرتبة رسم حدودها، وصياغة الرّدود فيها... ومن المؤلّفات المندرجة ضمن هذا المنحى كتاب عقيدة المسلم للشّيخ محمد الغزالي، الذي علّق على نتائج واقعيّته أحد الدّارسين قائلاً: (نتيجة لهذه الواقعيّة الثّقافيّة، لا تبرز العقيدة في الكتاب – لقارئه من خلاله – عناصر محدّدة واضحة الأبعاد؛ رغم أنّه عالج عامّة مسائلها، ولكنّ تداخلات المعالجة الواقعيّة كانت تطغى أحيانًا، وهذا

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة الرّوم)، المطبعة العربيّة غرداية، الجزائر، ص: 25. ذكر الشّيخ بيّوض هذه الملاحظة سنة 1968م.

2 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 111.

يغذّي القارئ بالعقيدة مشاعر فيّاضة، وإن لم تتّحد في فكره على شكل أنساق علميّة. "[1]

أ – إنّ الشّيخ يتوخّى الواقعيّة في تقديم درس العقيدة، وبخاصّة إذا كان في موقف التّنبيه والنّصح والتّحذير من العواقب الوخيمة من سلوك شائن، أو تصرّف يخدش العقيدة، أو يمسّ الإيمان. كما فعل في موضوع خطر الصّحبة الفاسدة، التي تزيّن ارتكاب الفواحش، واقتراف المعاصي...فضرب مثلاً بما قام به، وهو ينصح شخصًا، ويدعوه ليكفّ عن شرب الخمر، فذكر له هذا الشّخص أنّ بدايته الأولى كانت كأسًا تناولها إثر مجالسته رفقاء السّوء، وبطانة الشّرّ، واستحيائه أو خجله من عدم مشاركته هذه الشّلّة الشّراب المحرّم، فخاطبه الشّيخ؛ مبيّنًا له سوء العاقبة من هذا السّلوك" إن لم يبادر، مركّزًا فيه على عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر:" [2] قال الشّيخ لهذا الشّخص: " وهل هناك من هو أعظم من الله! وقد حرّم عليك الخمر؟ أتتجرّأ على ربّك أخذًا بخاطر من جالسته؟ ولو كان ملكًا أو رئيسًا؟ وهل يعقل أن يفسق أحدٌ أخذًا بالخاطر؟ أو أن يسرق أو أن يشرب الخمر كذلك؟ فلتأخذ بخاطر الزّبانيّة إذا جرّوك إلى عذاب الجحيم"[3]

واقعيّة الشّيخ تبدو:

1 – في التّمثيل لبيان فساد المعتقد، الذي أدّى إلى سلوك مشين، من أحد مواقفه هو؛ ليكون أكثر إفصاحًا وتوضيحًا.

1 – المرجع السّابق، ص: 124. ينظر عبد الرّحمن الزّنيدي، مناهج العقيدة الإسلاميّة، ص: 187.

2 – المرجع السّابق، ص: 118.

3 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي الفرقان والشّعراء)، ص: 106.

2 – في تنبيه هذا الشّخص الغافل بما قد يوقظ فيه إيمانه؛ بتحريك وجدانه ومقارنة ما أقبل عليه – تلبيّة لقرناء السّوء، أخذًا بخاطرهم – بتلبيّة دعوة زبانيّة جهنّم إلى دخول النّار يوم القيامة؛ أخذًا بخاطرهم. أي ذكّره بالمصير السّيّء الذي ينتظره يوم الفزع الأكبر، بطريقة غير مباشرة. هذا الموقف يكون أكثر تأثيرًا؛ لأنّه يتّسم بالواقعيّة التي رُبطَت بالأصول الإيمانيّة. هذه خصّيصة مهمّة في منهج الشّيخ بيّوض.

ب – يقول الأستاذ صالح حمدي: " لقد كان الشّيخ بيّوض واقعيًّا في تناول قضيّة الإلحاد بالله، فلم يعالجها كتعريفات اصطلاحيّة جافّة، بل انطلق من موارد ذكر القضيّة في القرآن، ثمّ أنزلها على واقعه، الذي يشهد مظاهر متجدّدة من الإلحاد، متمثّلة في التّيّارات الفكريّة التي نشأت في الغرب، واستهوت معها الشّباب المسلم. وقد ركّز الشّيخ على تيّاري الشّيّوعيّة والعلمانيّة؛ ببيان مضامين كلّ منهما وأسباب انتشاره بين هؤلاء الشّباب، ثمّ تقديم العلاج الرّبّاني للقضيّة، بعودته إلى القرآن مرّة أخرى. " [1]

ج – واقعيّة الشّيخ بيّوض في الدّرس العقدي، تبرز في حسن التّوجيه للإفادة من القرآن وخدمته. ففي موضوع خلق القرآن، الذي أغرق الأمّة الإسلاميّة في لجيّ عميق من الجدل العقيم، وحطّ بها في تيه من الفرقة والشّقاق، والتّناحر والصّدام. صوّب اهتمامه في توجيه المسلمين إلى كيفيّة التّعامل مع القرآن بما يساعدهم على جعله مصدر هداية، وحوّل النّظر إلى الواقع المعيش، الذي يعجّ بالمفاسد والمناكر، ونقد الإعلام الذي يبثّ وينشر صورًا مشوّهة عن الإسلام، فقابله الشّيخ بإعلام مضادّ، وهو الدّعوة إلى التّعلّم من القرآن ما يحقّ الحقّ ويبطل الباطل؛ مبيّنًا ما في

1 – مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام إبراهيم بن عمر بيّوض، ص: 334، 335.

القرآن من الشّفاء من الأمراض التي تصيب الصّدور. فبيّن لماذا الجهاد بالقرآن؟ لأنّه السّلاح الحادّ، الذي يحمل الحجج القويّة، والبراهين السّاطعة، التي تعين على إحقاق الحقّ وهزم الباطل، وحملة القرآن يدركون ذلك جيّدًا، لذا طالبهم الشّيخ بالقيام بهذه المهمّة، كما أمر الله ﷻ رسوله الكريم: ﴿...وجاهِدْهُمْ بِهِ جِهادًا كَبيرًا ﴾(سورة الفرقان/ 52) قال الأستاذ الشّيهاني حمّو " وسعى بذلك إلى توجيه النّاس من خَلْقِ القرآن إلى خُلُقِ القرآن. [1]

في هذا المجال، ووَفْق هذه المنهجيّة، وطبقًا لهذا التّوجيه.. حمّل طلبته مسؤوليّة المجاهدة بالقرآن؛ بصفتهم حاملين لكتابه: " تلك وظيفة حملة القرآن، وحملة لواء الدّين والشّريعة في كلّ زمان ومكان، وأنتم أيّها الطّلبة دعاة، كلّكم مطالبون بأن تجاهدوا بالقرآن الجهاد الأكبر، كما قال الله لنبيّه ﷺ، وقد مضى على نزول الآية أربعة عشر قرنًا، ولا تزال الآية محكمة، ونحن مخاطبون بها." [2]

د – من تمام واقعيّة الشّيخ بيّوض أنّه يراعي حال السّائل، ومستواه وسنّه في الإجابة عن مسائل العقيدة.

و – يعلّل لاختياراته وآرائه ومنهجه، كما قال عن منهج السّلف في الموضوع؛ لأنّهم أطهر قلوبًا، ولا يكثرون من سؤال النّبيّ ﷺ، حتّى لا يتطرّق الشّكّ إلى قلوبهم، ولأنّهم يثقون في قائدهم وموجّههم رسول الله ﷺ.

4 – العقلانيّة في عرض العقيدة

1 - الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 122.

2 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي الفرقان والشّعراء)، ص: 177.

لا نعني بهذا التّنصيص أنّ الشّيخ بيّوض يطلق العنان للعقل كي ينطلق ليسبح في أعماق العقيدة، ويوجّه الدّرس العقدي كما يشاء. فإنّ هذا يتنافى مع حقيقة الإيمان، ويتعارض مع منهجه هو، الذي سلكه في عرض العقيدة، ودعا إليه في توجيهاته وتقريراته، وهو يربط هذا الاستعمال بشروط كما نصّ على ذلك في الفقرة الآتية: " لقد أعطى الله تعالى الإنسان العقل، الذي يدرك به من أمور دنياه ما لا حدّ له، وأمّا ما وراء الطّبيعة، وما وراء هذه الدّنيا من أحوال الآخرة وأحوال المكلّفين فيها، فهذا ما لا يعلمه قطعًا يقينًا. وإنّما يمكن للعقل أن يدرك ذلك بعد أن يستمع إلى الرّسل والأنبيّاء، ويقرأ الآيات التي أنزلها الله في كتبه المتلوّة، كالتّوراة والإنجيل والزّبور والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى، أو بما يخبر به الرّسل عن ربّهم، ممّا ليس وحيًا متلوًّا، وقد نجد لما يخبرون به نظائر في القرآن؛ لهذا كانت الرّسالة ضروريّة للبشر، ولهذا قال الله تعالى:﴿...و ما كُنَّا مُعَذِّبينَ حتَّى نَبْعَثَ رسُولا ﴾ (سورة الإسراء/ 15) ولو كان العقل وحده كافيًا لما قال الله تعالى هذا، فهو قد علّق التّعذيب بإرسال الرّسل، ولا يعبد الله إلاّ بما شرع..." [1]

إنّما قصدنا أنّ الشّيخ بيّوض يستعمل العقل في بعض معالجاته لموضوع العقيدة، ما لم يؤدّ ذلك إلى المساس بجوهر الدّين، وهو يرمي بذلك إلى بيان جانب مضيء في مناهج البحث في العلوم الإسلاميّة وهو جانب العقل، كما أنّ بعض المعالجات العقليّة تساعد على الفهم الجيّد للمسائل، تسهم في رفع اللّبس، وردّ الشّبهات، وتحريك الإيمان في القلوب، والوصول إلى الحقيقة الكبرى، وهي الوحدانيّة.

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة الفتح)، ص: 246. في هذا التّنبيه وهذا التّوجيه تظهر العقلانيّة.

علّق الشّيخ بيّوض على قوله تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة الجاثيّة/ 4) موجّهًا العقل كي يتأمّل في حقيقة النّعم التي منحها الله الإنسان، ومن خلال هذا النّظر يقف على قدرة الله، بعدها يتيقّن منها، ويوقن واجبه نحو خالق هذه النّعم: "...والعجيب كذلك يبدو في هذه المعدة المصنوعة من اللّحم، ولكنّها تذيب كلّ شيء ولا تذوب، وفي أجهزة التّحليل والتّكرير، التي تفرز مئات الأنواع من الأطعمة التي يغذّي كلُّ واحد منها جزءًا معيّنًا من أجزاء الجسم فينمو، بينما الفضلات تخرج خارج الجسم، على سبيل البول وسبيل الغائط..وهكذا فإنَّ أمرَ خلقنا لعجيب! حتّى ولو اقتصرنا على الصّورة الظّاهريّة، التي يقول عنها الله تعالى: ﴿...وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ...﴾ (سورة غافر/ 64) فصورة الإنسان مستقيمة؛ إذ رأسه إلى الأعلى، وهي موضع الجوارح والحواسّ فيه، وكيف تتّسق وتتناسب حتّى يؤدّي كلّ واحد منها وظيفته بالتّعاون مع الأطراف الأخرى بدون تعارض أو تناقض، فالأمر عجيب وعجيب حقًّا! نبّهنا الله تعالى إليه في آية مختصرة قوله: ﴿ وفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دابّة ﴾ [1]

إنّ الشّيخ بيّوض حين يدعو إلى التّأمّل والتّفكّر في خلق الله، إنّما يهدف إلى تسخير العقل وتوظيفه لإدراك حقيقة الوحدانيّة، التي تدفع إلى إفراد العبوديّة لله، من دون سواه، وليس إعمال الفكر في خلق الله غاية، وإنّما هو وسيلة، حدّد له مجال تحرّكه، ونطاق استعماله. يتجلّى ذلك في تعليقه على قوله تعالى: ﴿...إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثيّة/ 13):"...والغرض من التّفكير في خلق الله هو الوصول إلى الحقيقة الكبرى، إلى حقيقة الحقائق، وهي أنّ لهذا الكون – علويّه

1 – في رحاب القرآن (الدّخان . الجاثية . الأحقاف . محمد)، ص: 135.

وسفليّه، وللمخلوقات جميعها – خالقًا مدبّرًا حكيمًا واحدًا، لا شريك له، مريدًا فعّالاً لما يريد، عليمًا بكلّ شيء؛ لأنّه خالق كلّ شيء: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخبيرُ ﴾(سورة الملك/ 14). ثمّ لنقول وراء ذلك: إنّ هذا الخالق يستحقّ على خلقه ومخلوقاته أن تحمده وتشكره، وتسبّحه على ما أنعم عليها، وهذا منتهى التّفكير. وإذا لم ينتهِ التّفكير إلى هذه النّتيجة، ولم يوصل إلى هذا الحدّ، فالويل لصاحبه، والويل كلّ الويل للذي يقول: إنّ هذا الخلق كلّه كان محض الصّدف والطّبيعة، أو مثل هذا الكلام..." [1]

كما دعا الشّيخ بيّوض إلى مداومة التّفكّر في مخلوقات الله، وفي أسمائه الحسنى قصد زرع محبّته في القلوب، التي يكون من أسباب إدراك الوحدانيّة، ويكون من عوامل تعظيم الله. يقول الأستاذ حمّو الشّيهاني: " دعا الشّيخ بيّوض إلى مداومة التّفكّر في خلق الله، وتأمّل تجلّيات أسمائه الحسنى وصفاته في الكون، فإنّ ذلك يعين على محبّة الله، وتعظيمه والتّوجّه إليه وحده؛ لأنّ القلب بقدر ما يمتلئ بحبّ الله والالتجاء إليه، بقدر ما يسقط تعظيم غيره من العباد." [2]

إنّ التّفكّر في خلق الله يساعد على إخلاص العبادة له، والابتعاد عن الشّرك، ويضع علاقة المرء بربّه في الطّريق الصّحيح، هذا موضع من المواضع الذي يمكن للعقل أن يشتغل فيه، لترسيخ العقيدة في القلب. هذا ما أراد الشّيخ بيّوض التنبيه إليه.

تجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الدّعوة لا تخلو من التّنبيه إلى وضع الوجدان إلى جانب العقل في الدّرس العقدي؛ لإحداث التّوازن في الخطاب. بمعنى أوضح، إنّه

1 – المصدر نفسه، ص: 173.

2 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 318. ينظر تفسير سورة لقمان، ص: 441.

لإثبات العقيدة وترسيخها في القلوب، يجب أن تكون بأسلوب يخاطب العقل والوجدان معًا. يجب أن تكون الأدلّة متنوّعة، ما بين برهانيّة إلى جدليّة، إلى خطابيّة، وهذا هو الأسلوب القرآني والنّبوي في تناول العقيدة.[1]

في الفقرة الآتية تتجلّى هذه الدّعوة أو هذه الفكرة، حتّى ولو أنّ ظاهرها يوحي بالحديث عن التّأملّ بالعقل. يقول الشّيخ بيّوض: "...فللتّعبير بالمصير سرّ وأيّ سرّ! فلو أنّ إنسانًا خُيِّرَ بين طريقين، فقيل له: هذا طريق مفروش بالحرير والورود، ولكن في نهايته حبل المشنقة، وذلك مفروش بالأشواك وقطع الزّجاج، ولكن في نهايته جنّة النّعيم. فمَنْ مِنَ النّاس يسلك الطّريق الأوّل؟!! فلينظر كلّ عاقل إلى المصير قبل أن يسلك الطّريق." [2]

5 – ضبط مسائل الاعتقاد

" من خصائص المنهج العقدي عند الشّيخ بيّوض ضبط مسائل الاعتقاد التي يتعيّن على المؤمن أن يعتقدها، ويكون له موقف ثابت فيها، حيث أَخْرَجَ من مسائل الاعتقاد ما ليس منها، ممّا حفلت به كتب العقائد، فسعى إلى حصر هذه المسائل في القضايا الإيمانيّة، التي تستند إلى أدلّة قطعيّة الدّلالة والثّبوت من الكتاب والسّنّة." [3]

ما يمكن استنتاجه من هذه الفقرة ما يأتي:

---

1 – ينظر كتاب مناهج الاستدلال، وكتابنا كيف تختار موضوعًا للوعظ، ط1، مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع،، السّيب، سلطنة عمان، 1424هـ/ 2003م، ص: 37 – 46.

2 – في رحاب القرآن (الفرقان والشّعراء)، ص:71، 72.

3 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 134.

أ – الدّعوة إلى تمحيص ما يتناول في موضوع العقيدة ونقده؛ بعرضه على الكتاب والسّنّة.

ب – ضرورة معرفة مسائل العقيدة؛ من باب وجوب التّفقّه في الدّين.

ج – التّفريق بين ما هو عقيدة، وما هو غير ذلك؛ لترشيد التّعامل مع القضايا الدّينيّة أو الشّرع بالطّريقة الصّحيحة.

د – الرّبط بين المسائل العقديّة والإيمان.

من أمثلة ما ذكره الشّيخ بيّوض لتطبيق هذه القاعدة، وتأكيد هذه الخاصيّة، قضيّة المفاضلة بين الملائكة وبني آدم. علّق الشّيخ على قوله تعالى وتكريمه بني آدم: ﴿...وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضيلاً﴾ (سورة الإسراء/ 70). وقد احتدم الخلاف بين المسلمين في تفضيل الله تبارك وتعالى للملائكة، أو لتفضيل بني آدم، وبخاصّة بين الأشاعرة والمعتزلة ووصل الأمر إلى السّبّ والشّتم واللّعن والتّكفير...قال الشّيخ: "...وكلّ هذا لا يعنينا، وهو ممّا لا ينبغي البحث فيه؛ لأنّه لا يوقف فيه بالبحث المجرّد والعقل المجرّد. ولا يمكن أن يعتقد في شيء من هذا، إلاّ إذا كان هنالك دليل عن النّبيء ﷺ، أو عن الله تعالى في كتاب، ولا دليل قاطع على أنّ الملائكة خير من بني آدم، أو أنّ بني آدم خير منهم." [1]

في تعليق الشّيخ بيّوض على قوله تعالى: ﴿ فيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيمٍ ﴾ (سورة الدّخان/4) وما قيل عن اللّيلة المباركة التي نزل فيها الكتاب المبين، وبعض الرّوايات فيها. من ذلك أنّ استنساخ القوائم يبدأ في ليلة النّصف من شعبان ويتمّ في ليلة القدر...إلى غير ذلك من الأقوال التي تفتقر إلى الدّليل. المهمّ عند الشّيخ بيّوض

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، ص: 48.

أنّ هذه الرّوايات لا تتعلّق بالعقيدة، فلا يفيد ولا يضرّ الاهتمام بها من عدمه: " وقد اشتهرت هذه الرّوايات، ولا يضيرنا نحن أن تكون أو لا تكون؛ لأنّها ليست مسألة عقديّة." (1)

6 – الاكتفاء في قصص القرآن بمواطن العبر

يقول الأستاذ صالح حمدي: " يعتبر الشّيخ (بيّوض) قصص القرآن أهمّ وسيلة لتقرير العقائد، وإصلاح النّفوس، ويرى أنّ المنهج الأمثل في فهمها هو الاكتفاء بمواطن العبرة منها، وعدم الخوض فيما سكت عنه القرآن من تفاصيلها؛ لأنّه لا يأخذ من التّاريخ إلاّ ما فيه العبرة. " (2)

ما ورد في هذه الفقرة يتضمّن ملاحظة مهمّة، واستنتاجًا أهمّ، يدلّ على القراءة الجيّدة لفكر الشّيخ بيّوض، ومعرفة دقيقة لمنهجه في الدّرس العقدي، يمكن تسجيل الآتي ممّا جاء في النّصّ:

أ – إرشاد إلى الطّريقة المثلى في التّعامل مع القرآن.

ب – حصر الاهتمام فيما فيه الجدوى في الحياة العمليّة.

ج – الدّعوة إلى الابتعاد عمّا هو ترف في التّفكير، لا يفيد، بل قد يضرّ.

في هذا التّقديم تبدو أصالة المنهج وقوّته في تأصيل المسائل، وعرض القضايا، ومعالجة الموضوعات، وتحديد مسار التّحرّك والعمل...

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سور: الدّخان . الجاثية – الأحقاف – محمّد)، ص: 16. ينظر الصفحات: 13 – 18.

2 – مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام إبراهيم بن عمر بيّوض، ص: 332، 333.

منهج الشّيخ بيّوض في هذا العنصر واضح ومطّرد، لم يحد عنه في كامل تفسيره. يمكن التّدليل على هذا بمثالين: قصّة ولادة مريم عليها السّلام بعيسى عليه السّلام، فبعد أن شرح القصّة قال: " وهكذا تنتهي هذه القصّة العجيبة، وقد رأينا في مطاويها حكمًا وأسرارًا عظيمة، ومن تتبّعها باهتمام يستفيد علمًا، ويزداد إيمانًا وتقوى، وليست الحكمة في أن نعلم شيئًا نجهله فقط، وإنّما الحكمة في جني ثمرة هذا العلم" (1)

في تعقيبه على القصص التي وردت في سورة الكهف قال: " وهكذا الغالب في خواتم السّور تكون خلاصة لما تقدّم فيها. ففي هذه السّورة الله تعالى قصّ علينا خمس قصص، قصّة أصحاب الكهف، وقصّة صاحب الجنّتين، وقصّة السّجود لآدم، وامتثال الملائكة لأمر الله، وعصيان إبليس. هذه القصص وما تخلّلها وما فيها من حكم وعبر، كلّها تقرّر قواعد وأسس الدّين الصّحيح، الذي هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بإحاطة علمه بكلّ شيء، وبأنّ وراء علم البشر المادي الظّاهري غيبًا لا يعلمه إلاّ الله، إلاّ إن أظهره لبعض خلقه ممّن يشاء من رسول، وأنّ علم الله لا يتناهى، وليس له حدّ مطلق." (2)

7 – نقد الأفكار غير المؤسّسة وغير المنسجمة مع العقيدة الصّحيحة

علّق الشّيخ بيّوض على قوله تعالى:﴿...تَراهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغون فضلاً من الله ورِضْوانًا...﴾ (سورة الفتح/28) بعد أن شرح الآية الكريمة، وبيّن القصد من ابتغاء الفضل والرّضوان، بعد الرّكوع والسّجود شكرً لله، وتقرّبًا وتذلّلاً له، ذكر أنّ

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي مريم وطه)، ص: 99.

2 - في رحاب القرآن (تفسير سورة الكهف)، ص: 416.

هذا داخل في عبادة الله طمعًا في رحمته وجزائه، وخوفًا واتّقاءً لعذابه وانتقامه. لكنّ بعض المتطرّفين في الفهم، وغير الفاقهين لحقيقة ما يجب أن يعتقد في فضل الله على عباده الموفّين بعهده، وفي عدله فيما وعد به، والمتطاولين على أحكام الله؛ غلوًّا في الفهم، وشذوذًا في التّأويل, يقدّمون بدائل لما أثبته الله في كتابه.

تصّدى الشّيخ بيّوض لهذه الأفكار ينقدها ويردّها؛ على ضوء الكتاب. فقال منبّهًا إلى خطل الرّأي القائل: إنّ الله لا يعبد من الرّغبة في ثوابه، والرّهبة من عقابه. في مزيد من التّوضيح للآية السّابقة: " أريد أن أنبّه إلى نكتة، قد يذكرها بعض المفسّرين، وهي أنّ بعض الزّهّاد والمتصوّفة قالوا: إنّ أفضل عبادة المرءِ أن يعبد ربّه، لا طمعًا في الجنّة، ولا خوفًا من النّار، وإنّما يعبده لأنّه أهل لأن يُعبدَ، كما قالت مثل هذا الكلام رابعة العدويّة...:(ما عبدتك طمعًا في جنّتك، ولا خوفًا من نارك، وإنّما عبدتك لأنّك أهل لأن تعبد)، واتّخذ بعض الصّوفيّة هذا شعارًا، يعني أن نعبد الله لأنّه المستحقّ للعبادة، لقدسيّته وجلاله، ولعظيم شأنه وعزّ سلطانه، ولجميل إحسانه وإكرامه، ولأنّه أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

نعم هذا كلام حقّ، ولكنّنا لا نستطيع أن نصل إلى حقيقة استحقاق الله تعالى، وكلّ ما يقال في هذا المجال، فهو أقلّ ما يجب أن يقال، وأنا أرى أنّ هذه المقولة شطحة من شطحات الصّوفيّة، وأنا شخصيًّا لا أقبلها، تُرى لماذا؟

ذلك لأنّ الله تعالى خلق الجنّة، وجعلها أجرًا لمن أطاعه وعبده وطلب رضاه، ووصفها بأوصاف تهتزّ القلوب شوقًا إليها، وخلق النّار وجعلها عقابًا لمن عصاه، وتجنّب عبادته وأسخطه، ووصفها بأوصاف ترتعد لها الفرائص فرقًا منها، ثمّ إنّه وصف عباده المؤمنين بأنّهم يدعونه خوفًا وطمعًا، فقال: ﴿ تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

المِضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (سورة السّجدة/ 16)
وقال عقب الحديث عن طائفة من الأنبيّاء الذين ختمهم بزكريّاء عليهم السّلام:
﴿...إنّهُمْ كانُوا يُسارِعونَ في الخَيْراتِ ويَدْعُوننَا رَغَبًا ورَهَبًا ﴾ (سورة الأنبيّاء/ 90)
فكلّ الأنبيّاء من آدم الطَّيْلا إلى النّبيّ محمّدﷺ يسألون الله تعالى الفوز بالجنّة، والنّجاة من النّار، ويدعون ربّهم رغبًا ورهبًا..." [1]

ليزيد الشّيخ الموضوع توضيحًا، ويتوسّع في تنوير العقول؛ تصحيحًا للمفهومات التي تمسّ العقيدة. قام يردّ على شبهة أثارها المستشرقون؛ طعنًا في القرآن، وتشكيكًا للمسلمين في مصدر عقيدتهم. لقد وصف هؤلاء المغرضون القرآن بأنّه كتاب جنس وشهوة ولذّة ومادّة؛ بما يحمل من دعوات للعمل في الدّنيا للحصول على المتع الجنسيّة والطّعام والشّراب، ممّا عدّوه مساسًا بالكرامة، وانحطاطًا إلى دركات الحيوانيّة. ردّ الشّيخ بيّوض على هذا الهراء وهذا الطّعن المغرض. فما عدّه المستشرقون إسفافًا وانحطاطًا، قال عنه الشّيخ هو أسلوب تربوي هدفه التّرغيب، وهو من صميم مقتضيات العقيدة: " إنّ الله تعالى يدعونا إلى أن نرغب في ثوابه، ويصفه لنا بكلّ وصف بديع ليحبّبه إلينا، ويشوّقنا إليه، حتّى فيما يتعلّق بالحالة الجنسيّة. وهذا ما أنكره بعض المستشرقين، وقالوا: إنّ محمّدًا رجل شهواني، إذ كيف يصف القرآن النّساء وحور العين ويرغّب فيهنّ، كمثل قوله: ﴿ حورٌ مقصُراتٌ في الخِيامِ ﴾(سورة الرّحمن/72) وقوله: ﴿ كأمثال اللُّؤْلُؤِ المِكْنُونِ ﴾ (سورة الواقعة/23)، وقوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جانٌّ ﴾(سورة الرّحمن/ 56). هذا غير المآكل والمشارب، وقد سخروا من الآيات الواردة في هذا المعنى، كمثل قوله: ﴿ مَّثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِدَ

1 - في رحاب القرآن (سورة الفتح)، ص: 345، 346.

المتَّقُونَ فيهَا أنْهارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسنٍ وأنْهارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربينَ وَأَنْهارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فيها مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ ﴾ (سورة محمّد/ 15). سخروا فقالوا: إذن في الجنّة لذّات جسمانيّة؟ أي نعم، فالله تعالى يريد أن يجمع بين اللّذّة الرّوحيّة واللّذّة الجسمانيّة واللّذة الجنسيّة كذلك، والقرآن ملآن بمثل هذا." [1]

8 - **يركّز أحيانًا على الدّلالة اللّغويّة في شرح المصطلحات وتوضيح المفهومات.** وله في هذا ملاحظات دقيقة، وتحليلات عميقة، وتأويلات رائعة، واستنتاجات جيّدة مهمّة...تخدم المعنى العام لما هو في صدد تفسيره. وقد أعانه هذا على الوصول إلى الهدف الذي كان يرجوه ويبتغيه من تفسيره آيات الذّكر الحكيم.

في تعليقه على قوله تعالى: ﴿...رَبَّنَا أَبصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صالِحًا إِنَّا مُوقِنونَ﴾ (سورة السّجدة/ 12) بيّن لماذا أتى الله ﷻ بلفظ (ربّ) بدل (الله) " اختار الله تعالى التّعبير بلفظ (الرّبوبيّة)، بدل لفظ (الجلالة)، الذي هو أعظم وأفضل الأسماء الحسنى، ولو شاء لقال: ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند الله، ولكنّه في هذا المقام اختار لفظ (الرّبّ)؛ لأنّه أدعى لإقامة الحجّة وقطع العذر، إذ الرّبّ فيه معنى الخلق والتّربيّة، والإمداد بالنّعمة، وكأنّه قال: ناكسو رؤوسهم عند خالقهم ومربّيهم ومعطيهم كلّ قوّة بدنيّة وعقليّة، حتّى انتهوا إلى ما انتهوا إليه من قوّة، فأنكروا الله وجحدوه، ففي ذلك الوقت وهم ناكسو رؤوسهم يحضر لهم ما كانوا يتغافلون عنه من قبل، من خلق الله لهم، وإغداق النّعم ظاهرة وباطنة عليهم.

1 - المصدر السّابق، ص: 346.

وهكذا القرآن الكريم، يجب أن تكون لنا وقفة مع كلّ حرف وكلمة وآية؛ لبيان سرّ استعمالها في مقام دون آخر، كاستعمال لفظ الرّبّ مكان لفظ الجلالة (الله) هنا..." [1]

عن مفهوم " الرّبوبيّة" وأثرها في توجيه السّلوك، يقول الشّيخ بيّوض، مستثمرًا دلالاتها ليبيّن سرّ اختيار الله تعالى اللّفظة المناسبة للمقام المناسب والحالة المناسبة، ولتكون هذه اللّفظة المختارة مناسبة لعرض العقيدة: "...فإذا قلت: (ربيّ الله)، بقلب صادق، فإنّك حينئذ تجعل الله نصب عينيك في كلّ حركة وسكنة، وهذا كاف في الاستقامة، فكلّما عرض لك أمر فاجعل الله نصب عينيك وكأنّك تراه، كما ورد في الحديث. تيقّن أوّلا أنّ الله معك في كلّ عمل تريد أن تقوم به، وفي كلّ كلمة تريد أن تقولها، وكلّ خطوة تريد أن تخطوها، وكلّ ما أردت أن تمدّ إليه يدك، أو ترسل عينيك لتراه، أو تطلق أذنك لتسمعه. أَتُرضِي الله بذلك أم تغضبه؟ فاعمل بمقتضى الرّبوبيّة التي تعترف بها..." [2]

9 – توحيد المرجعيّة

بهذه الخصّيصة كان الشّيخ بيّوض يعمل على تأصيل المسائل، التي يعرضها ويعالجها، ويتّخذ منها مواقف محدّدة، كان يستند في ذلك إلى ركيزتي النّصّ والعقل [3]. وكان يدعو المتمسّكين بأقوال الأوائل، أن يجعلوا ميزانهم في هذا التّمسّك والاتّباع قائد هذه الأمّة الإسلاميّة القدوة والرّائد رسول الله ﷺ: " ونحن نقول: مثل هذا

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 79.

2 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي غافر وفصّلت)، ص: 472.

3 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوض، ص: 142.

الكلام للذين يتمسّكون بالبدع؛ بناء على قولهم: إنّا وجدنا آباءنا، أو إنّا وجدنا أوائلنا ومشايخنا، نقول لهم: إنّ أوّلكم هو النّبيّ ﷺ. هل فعل شيئًا ممّا تفعلون أم لا؟ فقولكم:(إنّا وجدنا آباءنا) لا يقوم حجّة، إذا عارض آية صريحة، أو سنّة صحيحة، وقولكم هذا قد يقبل ما لم يعارض الطّريق الذي سلكه السّلف الأوّلون: النّبيّ ﷺ، الذي قال فيه الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ الله إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ... (سورة الأحزاب/21) ومن بعده من خلفائه وصحابته " [1]

10 – **وَقْفُ المؤمن على نقطة الارتكاز في تقديم الدّرس العقدي**؛ لمزيد من تأصيل الإيمان في قلب المسلم، ولمساعدته على استيعاب حقيقة العقيدة، وفقه الجوهر الذي لا يمكن التّساهل فيه، وتحويل الاهتمام بالقاعدة التي يُبنَى عليه السّلوك. فبعد أن فسّر الآيات التي حدّدت العلاقة التي تكون بين أزواج النّبيء ﷺ والذين آمنوا، وطرق التّعامل معهنّ، (وهو ما يجب أن يكون مع بقيّة نساء المؤمنين) [2]، ذكر أنّ الله ﷻ قال: ﴿...واتّقين الله إنَّ الله كان على كُلِّ شَيْءٍ شَهيدًا﴾ (سورة الأحزاب/ 55), أي إنّ الله ﷻ أشار إلى التّحلّي بالتّقوى؛ لاتّخاذ الاحتياطات، ووضع الحواجز، التي تمنع من الوصول إلى الفساد.. قال الشّيخ بيّوض: " فإذا أجاز الله تعالى للمرأة أن تنكشف لمحرمها فلابدّ من أن يكونا متّقين؛ لأنّهما إذا لم يكونا كذلك فقد يصلان إلى الفاحشة، وإنّ ذلك كان عند الله فاحشة ومقتًا وساء سبيلا.

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي الشّورى والزّخرف)، ص: 465. ينظر الفكر العقدي...، ص: 142.

2 – ينظر الآيات: 53 – 55، سورة الأحزاب.

فالله تعالى إذن كلّما أمر في كتابه بشيء أو نهى عن شيء، واتّخذ كلّ الاحتياطات التي تمنع من الوقوع في الجريمة، إلاّ وأمر بعد ذلك بالتّقوى، ويذكّر بكلّ ما يجعل القلب حيًّا يتّعظ ويدَّكر...

...والنّجاة كلُّ النّجاة فيمن يعبد الله كأنّه يراه، فعلى كلّ أحد أن يستحضر الله في كلّ وقتٍ، ويستعين به على كبح جماح نفسه في كلّ حال." [1]

ملاحظات مهمّة

من خلال قراءتي وتأمّلي في منهج الشّيخ في ما تناوله في تفسيره استوقفتني ملاحظات دقيقة، وإشارات عميقة، جديرة بالتّنويه بها [2]، أذكر بعضها فيما يأتي:

1 – **نبّه إلى أشياء خفيّة ودقيقة في موضوع العقيدة، وحقيقة العقيدة؛** لها أثرها في ترسيخ الإيمان في القلب، وتثبيت صفة التّذلّل والخضوع لله، وإبراز وحدانيّة الله، وإفراده بالعظمة، من خلال التّصرّف المطلق في خلقه، والتّفرّد بحكمة تسيير الأمور وتصريفها، وجعل ما يشاء في الدّنيا، وما يريد في الآخرة. يبدو ذلك في اتّصاف الله ﷻ بالعدل المطلق في الآخرة. من هذه المشيئة والإرادة عمد الشّيخ إلى بيان أثر هذا العدل في الإيمان بالله.

علّق الشّيخ بيّوض على ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ المجرمونَ نَاكسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صالحًا إنّا مُوقِنونَ (سورة السّجدة/ 12)؛ ليضيء جانبًا من جوانب العقيدة، التي تخفى على بعض النّاس، فلا يكون لهم ذلك الإيمان الذي يحّل الله ﷻ في قلوبهم بما يدفعهم إلى الإخلاص في

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 576.

2 – بعض هذه الملاحظات ذكرها بعض الباحثين.

العبادة، فقال: "...لو ترى حالة الكفرة في ذلك اليوم ورؤوسهم منكّسة من الخزي والذّلّ؛ لأنَّ أمرهم قد افتضح، وقد كانوا في الدّنيا يتّبعون الظّنون والأوهام وما تهوى الأنفس، ويعرضون عن آيات الله الظّاهرة وبراهينه السّاطعة...

وقبل أن يجيبهم الله تعالى الجواب المسكت المفحم، عجّل بكلمة أظهر فيها سلطانه وقهره وجبروته، وأنّ كلّ شيء يكون بإرادته، إذ ربّما يسبق إلى ذهن إنسان أنّ الكفرة عصوا ربّهم – حاشاه – رغمًا عنه، وأنّه لم يقدر على أن يحملهم على الإيمان، رغم قيام الحجج بإرسال الرّسل وإنزال الكتب، وتمييزهم بالعقل، مع ما في صدورهم من الفطرة التي فطر الله النّاس عليها، ولهذا عجّل بقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعينَ ﴾ (سورة السّجدة/ 12) لو شئنا لحملنا كلّ واحد على اتّباع طريق الهدى، ويجبر على ذلك جبرًا، ولكنّ حكمة الله اقتضت أن يخلق خلقًا ويجعلهم مكلّفين، ويمكنهم من الاختيار المطلق لما يريدون، ولكنّه يعلم ما سيختاره كلّ واحد منهم، ومن سيهتدي أو يضلّ، ولو شاء لانتزع من قلوبهم الشّهوات، فلا يكونون إلاّ مهتدين كالملائكة، ولو شاء لساقهم إلى ما يريد منهم بالغريزة والإلهام كالبهائم، فكثيرًا ما يفهم البعض هذا المفهوم، وكأنّ فيه نوعًا من الظّلم، ولكنّه يستسلم، على أنّ هناك ما يمكن أن تطمئنّ إليه النّفس من التّعليل." [1]

2 – **كان الشّيخ بيّوض يركّز في دروسه على ضرورة تحريك الإيمان في القلب** وتنميته ليكون ذلك دافعًا لمراقبة الله: إتيانًا لأوامره، وانتهاءً عن نواهيه، والتزامًا بالوقوف عند حدوده. وكان يكشف عن بعض الدّقائق التي قد تخفى على كثير من

---

1 – في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص:78، 80، 81.

النّاس، فلا يفقهون ما يرد في سياق الآيات؛ ممّا قد يبدو فيه عدم التّرابط، بينما هو تعبير محكم وإرادة إلهيّة في نسج الجمل وحِكَمٌ كما يراها هو؛ لقصد تقرير حُكم، أو تنبيه إلى أمر...[1]» في هذا قال الأستاذ حمّو الشّيهاني" ووظّف في هذا التّأكيد المناسَبَةَ بين الآيات، فلاحظ أنّ البيان الإلهي – في سورة الأحزاب – بعدما استفاض في الأساليب الوقائيّة من اقتراف الفاحشة أمر عباده بالصّلاة على النّبيء ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ علَى النّبيءِ يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب/ 56)؛ مشيرًا إلى أنّ ذلك ممّا يزكّي القلوبَ، فتستقيم الجوارح على الطّريقة [2]

علّق الشّيخ في عدّة صفحات على أمر الله ﷻ الصّلاةَ على النّبيء ﷺ؛ مبيِّنا مقامه وفضله، وما يجب على المؤمنين اعتقاده فيه، ثمّ محبّته، لأنّ محبّته من محبّة الله ﷻ [3] قال الشّيخ " جاءت هذه الآية المباركة التي تظهر فضل النّبيء ﷺ ومقامه العالي وخطر الذين يؤذونه ويؤذون المؤمنين، في وسط الكلام على نظام الأسر والعائلات، وعلى الأحكام المتعلّقة بالنّساء...وهي شديدة الاتّصال بما قبلها وما بعدها..." [4]

---

1 – يقول الشّيخ بيّوض:»وكما هو معلوم – بإجماع الأمّة – أنّ ترتيب الآيات توقيفي من عند الله تبارك وتعالى، والقرآن كلّه مجموع في اللّوح المحفوظ، ينزل بالآية والآيتين وفق ما يريد الله تعالى، ويقول لجبريل ثمّ إلى النّبيء ﷺ: ضعوا هذه الآية في مكان كذا وكذا...ولهذا فعلى المرء أن يتدبّر مواقع الآيات وحكمة ترتيبها..» في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 577. ينظر المصدر نفسه مثال آخر، ص: 85، 86.

2 – الفكر العقدي عند الشّيخ بيّوص،: 301.

3 – ينظر في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 576 – 598.

4 – المصدر السّابق، ص: 578.

بعد أن فصّل القول في كيفيّة الصّلاة على النّبيء ﷺ وذكر الصّيغ الواردة في هذا، وسرد بعض الأحكام المتعلّقة بالسّلام على رسول الله، وبعد أن عرض بعض أقوال العلماء في الجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير واحد...قال: " أمّا فيما يتعلّق بموقع هذه الآية في وسط هذا السّياق الذي نحن فيه، والذي بتعلّق بالمرأة وسترها وحجابها ومحارمها، فيبدو أنّ الحكمة هي إظهار مقام النّبيء ﷺ للنّاس...

في وسط هذا السّياق جاءت هذه الآية بيانًا لمقام الرّسول ﷺ عند الله تعالى..ومن المعلوم أنّه كلّما عظم الله تعالى في قلب إنسان كلّما كان أسرع إلى امتثال أمره واجتناب نهيه، وكذا الأمر بالنّسبة للرّسول ﷺ، فأراد الله تعالى أن يملأ قلوبَنا بتعظيم النّبيء ﷺ...

هذا الذي يريد الله تعالى أن يبيّنه بإدراجه هذه الآية هنا، وأنّ النّبيء ﷺبالمقام السّامي، وأنّه أفضل مخلوقاته؛ ليحفّزنا على اتّباع شرعه، والاقتفاء بسنّته، وتلقّي الأحكام التي جاء بها من قبل ربّه... " [1]

الملاحظة التي قدّمها الشّيخ بيّوض مهمّة جدًّا، ودقيقة في موضوع الإرشاد القويّ للتّعامل مع كلام الله تعالى، والفهم الصّحيح للدّين، والتّوجيه الذكيّ والهادف لفقه حقيقة العقيدة. إنّ الأحكام التي ساقها الله تبارك وتعالى، جاءت عن طريق الوحي، فبلّغها الرّسول ﷺ للنّاس. وهو بذلك يتبوّأ مكانة ساميّة، ومقامًا عاليًا عند ربّه، وهو ما يجب أن يعتقده المبلَّغ لهم ذلك، ويعملوا على تجسيده في حياتهم وسلوكهم، ما يعين على ذلك إظهار محبّته؛ لأنّ محبّته من محبّة مَنْ مَكنّه هذا القدرَ، وهو ربّ العزّة والجلالة والإكرام. فكان في إقحام تقدير النّبّيء ﷺ وعدم إذايته، بل الصّلاة عليه في سياق الآيات المتعلّقة

1 - المصدر السّابق، ص: 595 – 598.

بأحكام الأسرة توجيهٌ إلى الامتثال لأوامره، وقد ورد في السّورة نفسها قوله: ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُمِ فِي رَسولِ الله إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (سورة الأحزاب/ 21) وفي هذا ترسيخ للعقيدة، وتلقين إحدى مميّزات القرآن أو خصوصيّته، التي تكشف عن تفرّده وتمنّعه عن المثل والنّدّ، في هذا التّناول يتكشّف جانب من جوانب منهج الشّيخ في عرض العقيدة.

3 – تصحيح العقيدة بالتّنبيه إلى بعض الأخطاء الخفيّة

في معرض التّعليق على قوله تعالى: ﴿ إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النّبيء... ﴾(سورة الأحزاب/ 56) بيّن الشّيخ بيّوض أنّ من تمام تعظيم الله ﷻ التّأدّبَ معه في كلّ الحالات، تنزيهًا له أن يناله تقصير في حقّه، أو مساس بكبريّائه، وفيه تدريب النّفوس على تقديس الذّات الإلهيّة، وإفرادها بالعبوديّة والرّبوبيّة، اللّتين تدفعان إلى الخضوع لله والعمل على تحسين العلاقة به؛ بحسن السّلوك، هذا أثر من آثار رسوخ العقيدة في القلب، قال عن كلمة (يصلّون): " ومثل هذا الجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير واحد منهيّ عنه، إلاّ أن يكون الله تعالى هو الذي يجمع نفسه مع غيره، فقد كان النّبيء ﷺ مرّة مع جماعة من الصّحابة رضي الله عنهم، فقام خطيب منهم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال له الرّسول ﷺ: بئس الخطيب أنت! ألا قلت: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى [1]. ولهذا شواهد من القرآن.

1 – مسلم، الصّحيح، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصّلاة والخطبة، حديث: 870، ج2، 594.

وإذن لا يجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير واحد، ولكنّ هذا الجمع في قوله تعالى: ﴿ إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النّبيء... ﴾أراد به الله تعالى أن يشرّف ملائكته، وأضافهم إلى نفسه. " [1]

وبعد أن ذكر رأي بعض المفسّرين في تأويل ما جاء في الآية، وعرض شاهدًا من هذا الاستعمال في القرآن ووضّحه [2]، وجّه كلامه للموجّهين، وهو بيت القصيد ومحلّ الشّاهد من كلّ ما عرضه، وهذا يندرج في صميم منهجه في عرض العقيدة، قال: " وعلى الوعّاظ والمرشدين والكتّاب الحذرَ من الوقوع في مثل هذا الخطأ. وإذا لم نقل فيها: إنّه لا يجوز، نقول: إنّه سوء أدب مع الله، فإذا تكلّمت عن الله تعالى، فتكلّم عنه وحده، ولا تضمّ إليه أحدًا، وتجمعه معه في ضمير واحد." [3]

4 – توجيه المربّين إلى أساسيات في التّربيّة على العقيدة

-كان الشّيخ بيّوض حريصًا أشدّ الحرص على إرساء قواعد البناء، وتثبيت أسس التّربيّة، من ذلك توجيه المربّين والمكوّنين إلى الانتباه إلى الخطوات المهمّة في الإعداد والتّكوين، وعدم الغفلة عن الأمور الأساسيّة في رسم خطط بناء النّفوس.

في حديثه عن أثر الدّين في التّربيّة والتّعليم، عرض لما حصل من تطوّر في الأبحاث التّربويّة، وما تكدّس من نظريّات في علوم التّربيّة وعلم النّفس، وما أبدعه العلماء والفلاسفة من آراء في تربيّة الأحداث، من دون الاهتمام بالدّين في التّكوين، وطلب الهداية من دون الالتجاء والاستعانة بالله، أي إبعاد الجانب العقدي في العمليّة

1 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 592، 593.

2 - ينظر الآية: 24 من سورة المائدة.

3 - في رحاب القرآن (تفسير سورتي السّجدة والأحزاب)، ص: 593.

التّربوية...وقالوا: في هذه النّظريّات والتّجارب الوسائل المثلى لتحقيق النّجاح في التّربيّة والإعداد. قال الشّيخ بيّوض سائلا ومجيبًا من يسير في هذا الدّرب، وبهذا المنهج: " وهل تظنّون أنّ شيئًا من ذلك ينفع من دون التّربيّة الدّينيّة؟؟ - كلاّ والله — وأقولها مجلجلة مدويّة: فلا تربيّة تنفع في إصلاح سلوك الإنسان وتحقيق سلامة قلبه، إلاّ إذا كانت مبنيّة على كتاب الله وسنّة رسوله، فاملأ أيّها المربّي المسلم قلوب ناشئتك ما استطعت بجلال الله ومحبّته، والرّغبة في نعيمه ورضوانه، والخوف من عذابه ونقمته، وبغير ذلك لا تجدي أيّة فلسفة تربويّة لفلان أو علاّن." [1]

دعم الشّيخ رأيه في هذه النّقطة بالواقع الإنساني والعالمي، الذي يشكو تعثّرًا في البناء الصّحيح للإنسان السويّ؛ بسبب غياب الحجر الأساس في ذلك وهو الدّين،وقال: إنّ هذا الواقع يغني عن الإجابة: " ذلك لأنّ الذي يمكن أن يستفيد من تلك العلوم في التّربيّة وعلم النّفس، هو ذلك المربّي الذي يضع كتاب الله في يمينه، وسنّة رسوله في شماله نبراسين ساطعين بنور الله، يكشفان له معالم الطّريق، في أوّله ووسطه وآخره، وهو يقوم بمهمّته التّربويّة، على أسس العقيدة الرّاسخة، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثمّ بعد ذلك يأخذ من التّجارب الإنسانيّة الصّادقة ويتزوّد بكلّ نافع من القواعد الصّحيحة والأساليب النّاجحة في غرس الأخلاق الإنسانيّة الرّفيعة، لتكوين الفرد الصّالح والمجتمع الفاضل." [2]

التّركيز على العقيدة قاعدةً صلبة أساسيّة في التّربيّة واضح وصريح فيما نبّه إليه الشّيخ بيّوض، ولن تقوم مكانها ما يدعو إليه المربّون خارج دين الله، إنّهم لن يتمكّنوا

1 - حديث الشّيخ الإمام ردًّا على بعض الشّبهات والأوهام، الحلقة الأولى، ص: 22.

2 - المصدر نفسه.

من القيام بمهمّاتهم التّربويّة بقوّة بعيدًا عن تشريع ربّ العباد، بل إنّ الإفادة من التّجارب الإنسانيّة لغرس القيم الإنسانيّة في الإنسان الصّالح والمجتمع الفاضل، لن تحصل إلاّ إذا كانت الانطلاقة من الدّين، وكانت الرّعاية الشّاملة والحضانة الكاملة والحصانة الدّائمة من الإيمان بمكوّنات العقيدة.

–في السّياق ذاته، أشار على المربّين إلى العمل على تكوين الضّمائر الحيّة والقلوب السّليمة في النّاشئة، بالاستعانة بالله في التّوفيق في التّربيّة، وتوفير الهداية للأجيال الصّاعدة، وهو تنبيه مهمّ، إذ يجعل في الارتباط بالدّين، والتّعلّق بإرادة الله ومشيئته توجيهَ عمل عباده. من شأن هذا التّنبيه أن يزرع الأمل والطّمأنينة في قلوب المربّين، الذين يتحرّكون بوحي من العقيدة، هذا التّصرّف هو إحدى ثمرات منهج عرض العقيدة.

قال الشّيخ بيّوض: "...فهذا هو مجال الدّعوة الحقيقيّة للمربّين الإسلاميّين والدّعاة إلى الله، فليكن شغلهم الشّاغل كيف يتوصّلون إلى تكوين تلك الضّمائر الحيّة، والقلوب السّليمة في نفوس الأجيال الصّاعدة، ويجعلوا نصب أعينهم معنى هذه الآية الكريمة ﴿...مَنْ يَّهْدِ الله فَهُوَ المهْتَدْي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (سورة الكهف/ 17)؛ وذلك باستنفار جهودهم في الأخذ بوسائل التّربيّة الحديثة ومناهجها الصّحيحة، ثمّ يطلبون التّوفيق والهداية من الله، ليزكّي أعمالهم، ويثمر جهودهم، إنْ في بيوت الله للدّعاة والمرشدين، أو في المؤسّسات التّربويّة، والمعاهد العلميّة للأساتذة والمربّين" [1]

– نبّه المعلّمين المربّين إلى نقطة لها أهمّيتها في ترسيخ عنصر الاحترام لمصدر الهداية (القرآن الكريم)، لتحديد العلاقة التي يجب أن تكون بينه وبين نفوس المؤمنين،

1 – المصدر السّابق، ص: 25.

من حيث المكانة التي يحتلّها في القلوب، ومن حيث طرق التّعامل معه؛ حتّى يبقى متميّزًا عن سائر الكتب، فإنّ هذا من شأنه أن يبعث على تمثّل ما ورد فيه، والالتزام بما يأمر به. قال معلّقًا ومنبّهًا إلى الخطأ التّربوي الذي يرتكب في حقّ النّابتة والنّاشئة في طريقة التّعامل مع النّصّ الدّيني، الذي يكون أحيانًا باهتًا، لا حرارة فيه ولا تأثير: "...أفنرضى لأبنائنا المسلمين أن يتعامل أحدهم مع نصّ القرآن أو الحديث، كما يتعامل المسيحي أو الملحد؟؟ قصارى أمره أن يضبط من خلاله بعض قواعد الصّرف أو النّحو والبلاغة، ثمّ هو لا يحرّك فيه وجدانًا، ولا يقوده إلى معرفة الله ومحبّة رسوله، اللّهم لا.

ولذا فإنّنا لا نحيد عن موقفنا من التّعليم، بل نتعصّب له، ولو ببذل الأرواح؛ لأنّنا نعتقد أنّ المصائب كلّها تهون إذا سلمت لنا عقائدنا، واستقام ديننا..." [1]

-الكفّ عن القول بغير علم

ينبّه كثيرًا على الابتعاد عن الخوض في المسائل أو المباحث العقديّة التي ليس فيها علم يقيني، ولا أدلّة قطعيّة؛ لأنّها لا تزيد الأمر إلاّ تعقيدًا، ولا تورثّ إلاّ ضلالا وتيهًا، وابتعادًا عن الحقّ، إذ أنّها تخضع للتّأويل والنّظر الشّخصي، وقد تتأثّر بالأهواء والنّزعات الذّاتيّة، ثمّ إنّ التّفاصيل التي يبحث فيها عنها لا تقدّم في المجال العقدي أيّ بُعد، أو فائدة تنفع في السّلوك.

في هذا توجيه منهجي للتّعامل مع العقيدة، وترشيد للتّفكير والنّظر، وفيه اقتصاد للجهد وصرفه فيما هو في طاقة الإنسان المخلوق الضّعيف، ذي القدرة المحدودة، وإنفاق وقته في المفيد والنّاجع، وفي النّهاية فيه دعوة إلى تفويض الأمر إلى الله جلّ وعلا، الذي

---

1 - المصدر السّابق، ص: 31.

لو رأى في معرفة التّفاصيل في المسائل التي لم يمنح فيها الفرصة للفرد أن يبحث فيها لأخبرنا بذلك، ولمكّننا من النّظر فيها، وفي ذلك زرع لليقين في قلب المؤمن نحو خالقه... وهذا هو الدّرس الحقيقي الذي نفيده من العقيدة.

وجّه الشّيخ بيّوض أحد السّائلين عن مسألة كلاميّة قائلاً له: " والاشتغال بغير هذا من المهمّات الدّينيّة والدّنيويّة أولى وأحرى؛ لأنّ البحث فيما سألت عنه لا يأتي بنتيجة مطلقًا، مهما طال وامتدّ، فلا يعدو أن يكون تضييعًا للعمر فيما لا فائدة له."[1]

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿...أَفَتَتَّخِذونه وذُرِيّتهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظّالمين بدلاً﴾ سورة الكهف/ 50) قال معلّقًا على بعض ما ذكره بعض المفسّرين في حقيقة ذريّة إبليس، وما قيل في تأويل ما ذكره الله تعالى، وعدّ ما أجهد فيه القائلون أنفسهم لتقديم المعنى المقصود في هذه الآية أو هذا السّياق، ترفًا وسرفًا في الجهد، لا فائدة منه؛ لأنّه ببساطة لم يصحّ عن النّبيء ﷺ ما أوردوه، فلا يتقوّل على الله من دون علم، ومن دون دليل: " وثبت عن النّبيء عليه السلام أنّه أُرسل إلى الإنس والجنّ، فهم إذن مكلّفون، ولكن لا نعلم من أمرهم شيئًا، عن طريقة أدائهم الفرائض، وطريقة اتّصال بعضهم ببعض، وطريقة التّوالد، ولم يصحّ عن النّبيء ﷺ، شيء من هذا، ولو صحّ عنه شيء لقبلناه على الرّأس والعين؛ لأنّه خبر صادق، ولا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى، وإذ لم يصحّ عنه شيء، فلا يجوز أيّ اعتقاد في الموضوع." [2]

---

1 - فتاوى الشّيخ بيّوض، ج1، ص: 101. (ينظر الفكر العقدي...، ص: 101.

2 - في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف، ص: 189.

في هذه الملاحظّة الدّقيقة يضيف الأستاذ صالح حمدي: " يعتبر الشّيخ (بيّوض) قصص القرآن أهمّ وسيلة لتقرير العقائد، وإصلاح النّفوس، ويرى أنّ المنهج الأمثل في فهمها هو الاكتفاء بمواطن العبر منها، وعدم الخوض فيما سكت عنه القرآن من تفاصيل؛ لأنّه لا يأخذ من التّاريخ إلاّ ما فيه العبرة." [1]

إنّ الشّيخ بيّوض يتوقّف عن الخوض في هذا النّوع من القضايا، التي ينتج عنه اختلاف في الرّؤى، ويفضي إلى التّنازع والخلاف فالشّقاق...؛ بالإضافة إلى عدم الخروج بنتائج يقينيّة؛ لأنّها لا تستند إلى علم...من هذه المسائل حقيقة كلام الله. وكلام الله ﷻ موسى عليه السلام، ما هي اللّغة التي كلّم بها نبيّه؟ وكيف سمعه موسى؟ وكيف دار بينهما هذا الكلام؟؛ مذكّرًا أنّ الخوض في كلّ ذلك مضيعة للوقت، وانحراف عن سواء السّبيل؛ لأنّه اتّباع للظّنّ، وفيه ضرر للمسلمين في وحدتهم..." وكلّ هذا دخول فيما لا يعني، بل لا نحترس أن نقول: إنّه دخول فيما لا يجوز، فمن أين أن نعرف؟ (فالعجز عن إدراكه إدراك والخوض في إدراكه إشراك)، وخاصّة في مسألة الكلام التي طال فيها الجدال على أيدي أناس دخلوا الإسلام، وخلقوا الفتنة التي بها كثير من النّاس في زمان مضى، كما ابتلي البلاء الكيير التّقيّ الورع المتمسّك بالسّنّة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله...والله ما كان ينبغي ذلك الجدل، ويجب أن يطوى ولا يذكر، لأنّه ما شتّت المسلمين إلاّ هو." [2]

الخاتمة

---

1 - مسائل الإيمان بالله تعالى عند الإمام بيّوض، ص: 332.

2 - في رحاب القرآن (تفسيرسورة القصص)، ص: 359، 360.

1 – في ردّ الشّيخ بيّوض كلّ التّصرّفات وكلّ أنواع السّلوك إلى مصدر واحد، وإلى مرجعيّة واحدة تجسيد لأصل الوحدانيّة أو الواحديّة، التي تميّز بها الدّين الإسلامي. هذا التّناول لشؤون الحياة بهذه القاعدة، وفق هذا المبدأ، هو ثمرة العقيدة، التي تحرّك الفرد المسلم في مسيرته في خطّ مستقيم. هذا ما يطلب الشّيخ بيّوض ويدعو أن يعيه النّاس حقّ الوعي، ويكيّفوا سلوكهم على هديه. ويريد أن تكون العقيدة حاضرة في كلّ أعمال الفرد المسلم، وهو ما تهدف إليه التّربيّة الصّحيحة. ونجاح الشّيخ في هذه الرّسالة جاء نتيجةً لنجاعة منهجه في عرض العقيدة.

2 – منهج الشّيخ بيّوض في عرض العقيدة يبيّن أنّ العقيدة فطرة في الإنسان، بمعنى أنّ الإنسان بعيش العقيدة بالقوّة. والفعل يعمل على إيقاظها وتنمية التّمسّك بها.

3 – إنّ الشّيخ بيّوض ركّز في تفسيره على العقيدة، ينطلق منها ليصل إليها، يؤسّس منها وعليها ما ينطق به، وما يوضّحه، وما يبني عليه بنيانه التّربوي والتّرشيدي والتّوجيهي والإصلاحي، وعمله الشّامل لكلّ مناحي الحياة. فإذا أمكن أن نعطي لتفسيره وصفًا خاصًّا، أو نسمه بسمة عامّة نقول: هو كتاب عقيدة؛ إذ أنّ الشّيخ يربط كلّ تحليلاته وتعليقاته بالعقيدة.

هو بذلك يصدر عن حقيقة الدّين الإسلامي، وهي العقيدة. فكلّ ما يتفرّع من هذا الدّين، وكلّ ما يوجّه الفرد؛ طبقًا للدّين، وكلّ ما يطبع سلوكه وفق هذا الدّين هو عقيدة. بهذا يكون الشّيخ قد التزم بمنهج الإسلام في التّربيّة والتّوجيه، المتمثّل في استصحاب العقيدة في كلّ حركة وكلّ توجيه، وفي كلّ تفسير...

4 – طريقة تناول الشّيخ بيّوض لمسائل الدّين، ودعوته وإصلاحه، وبخاصّة تفسيره القرآن الكريم، واستعانته بمصادر في هذا التّفسير، كالقرآن الكريم نفسه والسّنة الشّريفة والسّيرة النّبويّة والأمثال العربيّة واللّغة العربيّة...وتوظيفه الوسائل المختلفة...كلّ ذلك يصل بالمتلقّي لهذه التّوجيهات، والمتعلّم من منهجه، والمخاطب بكلامه وإرشاده، والواعي والمستوعب لما ينقله إليه...إلى فقه أنّ أصل الدّين هو العقيدة، وأنّ كلّ سلوك وكلّ تحرّك مرجعه واحد هو العقيدة.

هذه النّتيجة حصلت - وتحصل – نتيجة وضوح منهج الشّيخ بيّوض ودوره وقيمته في عرض العقيدة، وفهمه الصّحيح لمكوّنات العقيدة، التي هي كلّ ما يحمله الإسلام، وكلّ ما يحويه مفهوم الدّين.

5 - هذا المنهج يبيّن أنّ العقيدة هي القاعدة الصّلبة التي كان يرتكز عليها الشّيخ بيّوض في عمله الدّعوي والتّربوي والإصلاحي...هذه نقطة مهمّة في منهجه، وهي من العناصر الأساسيّة التي يجب أن تستثمر في دراسة منهج الشّيخ في شخصيّته وفي عمله ونشاطه؛ للإفادة منه في بناء النّفوس، وتكوين النّشء...

6 – إنّ هذا التّوجّه في عرض العقيدة يرتبط ويتّصل بشخصيّة الشّيخ بيّوض الإصلاحيّة، وينبثق من التزامه بمبدأ الإصلاح الشّامل، فيكون على رأس ميادين الإصلاح - بل أساسه - ترسيخ العقيدة الصّحيحة في القلوب، وتبيين الطّرق السّليمة في التّربيّة؛ طبقًا لما تشير به وتدعو إليه.

7- – ردُّ كلّ مسألة إلى أصولها الإيمانيّة، وربطُ كلّ سلوك بقاعدة إيمانيّة، مهما يكن هذا السّلوك، في أيّ مجال كان، في العبادات والمعاملات أو العقيدة...يبيّن ترابط تصرّفات الإنسان، وتشابك حركات المؤمن، ويبرز شموليّة الإيمان وهيمنته على كلّ

مناحي الحياة، وعلى كلّ سلوك؛ إذ هو الموجّه والمقوّم لسلوكه في الحياة. من هذا يتبيّن ويعرف المؤمن مرجعيّته في الحركة والنّشاط والسّلوك، فتبدو له أنّها واحدة، لا ثانيّة لها، هذا ما أظهره وأثبته منهج الشّيخ بيّوض في تناول العقيدة.

8 - ربطُ مسائل العقيدة بأصولها العمليّة والتّربويّة، وإبرازُ البعد العملي والجانب الأخلاقي، الذي ينبغي أن يظهر في حياة الفرد المسلم من إيمانه بالأصل العقدي.

9 - لا يقف الشّيخ كثيرًا بالجدل في المسائل المختلف فيها، التي لا تعدّ من أساسات العقيدة، والتي لا تؤثّر في السّلوك والعمل. إنّما يركّز على ما بعين على حسن العمل، وتحسين السّلوك، وترشيد الحركة. ويستبعد كلّ ما يثير الفتن، ويزرع الشّقاق، ويؤجّج العداوة.

10 — حمل على عاتقه مسؤوليّة التّصحيح؛ بصفته مربيًّا وموجّهًا ومعلّمًا، فقام بتصحيح المسار، وتصحيح عمليّة التّربيّة، وحماية الدّين.

11 — يخاطب العقل، ويحرّك الوجدان في آن واحد، ويختار الأسلوب المناسب ؛ حسب مقتضيات الأحوال، وحال المخاطب، وطبيعة الموضوع، ودواعي تناول المسألة...

12 — يحرص أشدّ الحرص على الدّعوة إلى بناء العقيدة على اليقين، وفد اجتهد كلّ الاجتهاد للالتزام بهذا في منهجه. دعاه هذا إلى الاستقلال بالرّأي في بعض الأحيان، حين لا يطمئنّ إلى التّفسيرات أو التّأويلات المقدّمة، ويراها لا تنسجم مع منهجه، لافتقارها إلى اليقين وإلى الأدلّة القطعيّة.